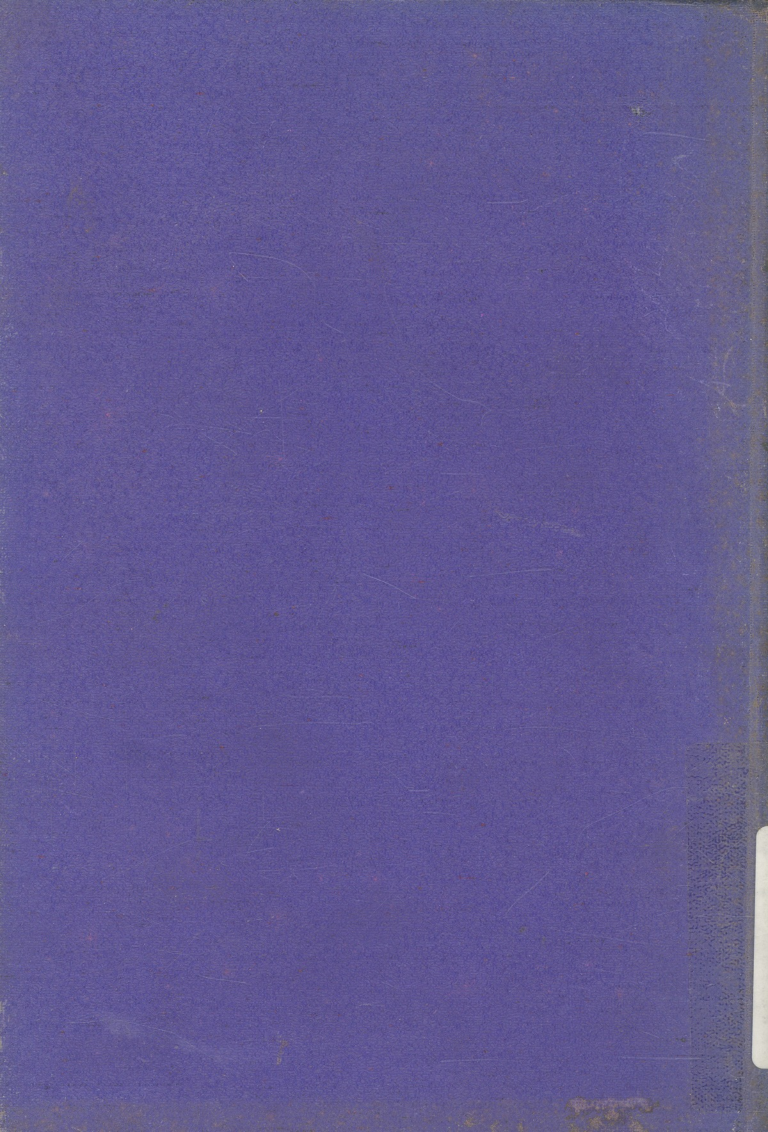


اهداءات ٢٠٠٣

أ.د/ محمد سعيد الفارسي

المملكة العربية السعودية

مُشْكِلَةُ الزَّوَاجِ

المرأة المصرية

قيمتها ـــ احترامها ـــ حياتها

قـــديماً وحـــديثاً

بقلم

احمد يوسف

المصوّر بالمتحف المصري

المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

١٩٣٢



وَبِالصَّلاَةِ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ

نَبْدَأُ ، وَنَنْتَهِي

حَامِدِينَ شَاكِرِينَ .

الى الاستاذ

« احمد الصاوى محمد »

ما أظنك ، أيها الصديق ، إلا مغتبطاً برسالة تعبر عن مجد مصر . مصر التى نعيش لها . وتعالج موضوعاً كنتَ أجرأ من جاهد فى ميدانه ، ودافع للحق فيه .

وإذن . فهات يدك أهزها ، تفاؤلاً بالانتصار ، واعترافاً بفضلك ؟

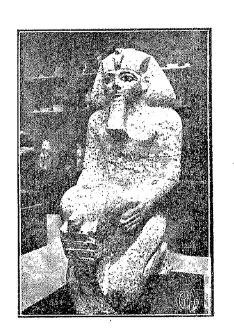
الاهـــداء

الى

الملكتين العظيمتين

المصريتين

حاتشبسوت ، نفـــرتيتى



ملكة مصر « الرجل »



زعيمة الحرية والمساواة



(تقدمة زوجتي المستقبلة)

تصـــدير

فكرت ، حيث كانت مشكلة الزواج تهدد كيان البـلاد ، وتنشر على مصر شبحها المخيف ، أن أدلى بكلمة عن تاريخ الانسانية الاولى . وكيف كان أولئك الأجداد ، الذين مازالوا يعطوننا الدروس فى الحياة والواجب ، حتى تركوا لنا هذه الحياة بما فيها من خير وشر ، وراحوا يراقبوننا من وراء سجاف الآخرة فى عالم الارواح ، لينظروا كيف نشق طريقنا فى الحياة ، وكيف نأخذ بها ؟ وليروا هل نزيد شيئاً على ما وصلوا اليه من معرفة وادراك ؟ وهل تغلب فلسفتنا فى الحياة فلسفتهم ؟

كيف كان أولئك الأجداد ينظرون نظرتهم الى الزوجية ، وكيف كانوا يفهمونها ؟ ثم كيف كانوا يقدرون المرأة عموماً فى حياتهم الاجتماعية ؟

ولهذا الموضوع شأنه من الأهمية . سيما وأنه سيتناول شئون الأسرة المصرية القديمة ، بكل ما كان عندها من نظريات فى الزواج ، وفكرة فى المرأة ، وكيفية فى بناء الاسرة .

ولقد كان لجريدة « الاهرام » ، التى لم تأل جهداً فى خدمة

الحياة المصرية ، الفضل فى اصدار هذا الـكتاب ، الذى أقدمه لحضرات القراء عن « المرأة المصرية قديماً وحديثاً » . فهى إذ كانت السابقة فى البحث فى مشكلة الزواج ، بما حمل به محررها النابه النشيط « الاستاذ الصاوى » ، محامى الشباب وترجمانه ، على التقاليـد والعادات العتيقة السقيمة ، التى تحول دون السعادة الزوجية ، وتعرقل تأسيس البيوت ، أوحت الىّ الفكرة لأضع تاريخاً للمرأة المصرية وشئون الزواج ، ثم وسعت صدرها لتنشر لى بحثى .

* * *

ولما كان لـكتب التاريخ لغة خاصة . عودنا كتاب التاريخ أن يقرئونا بحوثهم على أسلوبها .

ولما كنت كفرد من الشعب ، مع شدة شغفى بالتاريخ ، وعنايتى بدراسته ، أصادف فى نفسى كثيراً من الأحيان غضاضة عندما أطالع مؤلفاً تاريخياً . يساق فيه الـكلام سوقاً ، وتسرد به الحوادث سرد الرواية على وتيرة واحدة . حتى أنى كنت أشعر

فى كثير مما قرأت بالملل والسآمة ، إن لم أتته من الـكتاب كما بدأت فيه .

وللشباب قلوب حديد ، إذهى موطن الشهامة والنخوة ، لا يمكنك أن تصل الى جذبها اليك ، وتبلغ الى تنبيهها وايقاظها الا اذا ألقيت عليها شعاعاً من مغناطيس الفاظك وتعبيرك .

ومذهبي ، إذ أن التاريخ سجل للعبر والعظات ، أن يمهد كاتب التاريخ ، قبل أن يفكر فى سبك قالب الحوادث ، الى كيف يجذب بـكتابته قلوب القراء ، ويستدرجهم لمتابعة قراءته بغير ملل . وكيف يؤثر فى تلك القلوب بعبر التاريخ وعظاته .

لما كنت أعلم ذلك ، بعقيدة من نفسى كشاب من شباب مصر . ولما كان ظنى فى اخوانى الشباب صدوفهم عن قراءة الـكتب التاريخية لمثل عقيدتى ، ولا لوم عليهم . رأيت أن أنهج نهجاً حديثاً فى كتابة التاريخ ، وهو أن أتحاشى لنفسى ما كنت أشعر منه بالملل عند دراستى فى كتب المؤرخين . فمزجت التاريخ بالأدب ، لألين من صلابته ، وألطف من جفاء البحث . وخلطت الماضى بالحاضر ، لأبلغ بتعليقات الحوادث ، ومقارنات

الوقائع ، الى قلوب القراء . ولست أدرى إن كنت فى هذا الأسلوب من الكتابة عن التاريخ سابقاً أو مسبوقاً ؟

* * *

وأخيراً ، اذا بى أشعر بنجاح الموضوع ، وترحيب الجمهور به . رأيت أن أجمع شتات ما نشرت ، وأجعله كتاباً . هو ما أقدمه هنا لأمتى .

وليته يحوز القبول .

المؤلف

آراء لبعض الحكماء

فى المرأة

علموا المرأة ، لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها اولادكم قبل المدرسة : وأدبوها ليتربى فى حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم

« المنفلوطى »

عجبت من رجل نصف جاهل ، لا يكفيه من المرأة أن تكون نصف عليمة .

« شوقى بك »

كلما أردت أن أتخيل السعادة ، تمثلت أمامي فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل .

« قاسم امين »

ليس لتأثير المرأة على حياتنا نهاية . فهو أصل كل شىء يحدث لنا

« بيكنسفيلد »

المرأة حلقة عظيمة فى سلسلة الحياة الوطنية . وهى أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل المدرب ، ومن مدير الاعمال العظيمة ، ومن الاستاذ فى الفنون والعلوم

« روز فيلت »

أيتها المرأة . أنت تحكمين ، والرجل مملكتك . تحكمين على عشاقك ، وزوجك ، وأولادك . وعبثاً يظن الرجل أنه أعظم منك ، ويفاخر بتفوقه عليك . فقوته ، ومجده ، وعظمته ، جميعها مستمدة منك .

« اميه مارتين »

خلق الرجل للقيادة ، والمرأة للارشاد والمعاضدة فى قيادته . ليس كل الرجال قادة . وكثيراً ما أظهرت المرأة فى القيادة كمالاً نادراً ؛ وبالأخص فى بعض المواقف الحرجة ، التى لم يكشف نور مصباح الفيلسوف عن وجود رجل واحد فيها . ولكن هذه استثناءات . لأنه لا كمال فى أعمال الحياة إلا باتحاد الرجل والمرأة معاً ، وسيرهما جنباً لجنب .

« س . د . غردون »

إن النساء حور هربن من رضوان ، وهجرن حدائق الجنان ، لتلطيف شقاء بنى الانسان .

« اسكندر دوماس »

البيوت بدون النساء الصالحات قبور .

« بلزاك »

أحسن مقياس لحياة الانسان هو حياته المنزلية .

« س . د . غردون »

حب العائلة مصدر حب الوطن .

« تيبسن »

لتكن لفرنسا أمهات طيبات ، يكن لها ابناء بررة .

« نابليون »

كل شيء حسن وجميل حولى هو من صنع زوجتى

« ركفلر »

إن امرأتى هى التى جعلتني من أنا .

« بسمارك »

المرأة هى مكونة المجتمع . فلها عليه تمام السلطة . لا يعمل فيه شيء إلا بها ولأجلها . والمرأة هي أكبر مربية للرجل . فهى تعلمه الفضائل الجميلة ، وأدب السلوك ، ورقة الشعور . ثم هى تعلم بعضاً من الرجال كيف يصبحون لطاف المعشر . وتعلم الجميع كيف لا يكونون غلاظاً . وبواسطة المرأة يدرك الرجل أن الهيئة الاجتماعية ذات تركيب دقيق ، كثير التفرع ، متعدد العناصر . وهذا ما لا يخطر عادة لمعاشر الرجال وهم يتناقشون فى أنديتهم السياسية . وأخيراً ، فبقربها يتضح لنا أن أحلام العواطف وأظلال الايمان ، شديدة الأثر ، لا يمكن قهرها . وأن البشر غير مسيرين باحكام عقولهم .

« اناتول فرانس »

كلمة للمرحوم المنفلوطى

« ليت شعرى هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التى أسدتها الينا ، وجازيناها بها خيراً ؟ لا . لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا ، ومشاعر نفوسنا ، فاننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود ، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والاجلال . وهى الى نهلة واحدة ، من موارد الاجلال والاعظام ، أحوج منها الى شؤبوب متدفق من سماء الحب والغرام .

قد نحنو عليها ونرحمها . ولكنها رحمة السيد بالعبد ، لا رحمة الصديق بالصديق . وقد نصفها بالعفة والطهارة . ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء ، لا عفة النفس والضمير . وقد نهتم بتعليمها وتخريجها . لا باعتبار أنها إنسان كامل ، لها الحق فى الوصول الى ذروة الانسانية التى تريدها ، وفى التمتع بجميع صفاتها وخصائصها ، بل لنعهد اليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة . أو لنتخذ منها ملهاة لأنفسنا ، ونديماً لسمرنا ، ومؤنساً لوحشتنا . أى أننا ننظر اليها بالعين التى ننظر بها الى حيواناتنا المنزلية المستأنسة ، لا نسدى اليها من النعم ، ولا نخلع عليها من الحلل ، الا ماينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً .

انها لا تريد شيئا من ذلك . انها لا تريد أن تكون سرية الرجل ، ولا حظيته . ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته .

انها تفهم معنى الحرية كما يفهمها الرجل . فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه .

انها لم تخلق من أجل الرجل ، بل من أجل نفسها . فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها ، لا لنفسه .

يجب أن ننفس عنها قليلا من ضائقة سجنها ، لتفهم أن لها كيانا مستقلا ، وحياة ذاتية : وأنها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها ، لا أمام الرجل .

يجب أن تعيش فى جو الحرية ، وتستروح رائحته المنعشة الأريجة ؛ ليستيقظ ضميرها الذى أخمده السجن والاعتقال من رقدته ، ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ، ومراقبة حركاتها وسكناتها . فهو أعظم سلطانا ، واقوى يداً ، من جميع الوازعين والمسيطرين .

يجب أن نحترمها ، لتتعود احترام نفسها . ومن احترم نفسه فهو أبعد الناس عن الزلات والسقطات .

لا يمكن أن تكون العبودية مصدراً للفضيلة ، ولا مدرسة

لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة، الا اذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور، والموت رغبة فى الحياة، والعدم سلماً للوجود. كما لا أريد أن تتخلع المرأة، وتستهتر، وتهيم على رأسها فى مجتمعات الرجال وأنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها. وهو المعنى الذى يفهمه البسطاء من العامة عادة من كلمة الحرية عند اضافتها الى المرأة. كذلك لا أحب أن تكون مستعمرة ذليلة، يسلبها مستعمرها كل مادة من مواد حياتها، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير.

وبعد، فاما أن تكون المرأة مساوية للرجل فى عقله وادراكه، أو أقل منه. فان كانت الاولى، فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق، والنظير للنظير. وإن كانت الأخرى، فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه، والأب مع ابنه. أى يعلمها ويدربها، ويأخذ بيدها، حتى يرفعها الى مستواه الذى هو فيه، أو مايقرب منه، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفى، والعشير الكريم. والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله. والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه.»

«مصطفى لطفى المنفلوطى»

الحق المغتصب :

« الذى ينظر الى نهضة المرأة فى الشرق نظرة ارتياع أو استياء ، هو الظالم الذى ينفر من رد الحق المغتصب الى الذى سلبه منه . هو ذلك المستبد المرهق ، الذى يريد ابقاء القيد فى قدمي المغلوب على أمره ، ليبقى الى الابد مستعبداً مرهقاً . ومن الغريب أن هذا الظالم نفسه هو الذى يجأر استغاثة من الظلم ، ويصدع العالم كله بصوته الداوى ، يشكو الحيف ، ويطلب التحرر من قيود الاستعباد ، ويطالب بحقه الطبيعى من الاستقلال والحرية بين الاحياء »

« حافظ نجيب »

تمهيـــد :

ما أظن فى الدنيا قضية شغلت افكار العالم ، وتطاول فيها الجدل ، وتضاربت الآراء أخذاً ورداً ، فما انتهت إلى قرار ، وما استقرت على حال ، كقضية الجنسين : هل يتساويان فى الحقوق الاجتماعية ؟

وبرأيي ستستمر هذه القضية « الدولية » سجالاً بين الفريقين على مر العصور . وسوف لا يصدر فيها حكم قاطع ، ولا يلفى لها حل مقنع .

وليس الدهر كفيلاً باظهار الحكم العادل . ولكن ذلك سوف لا يكون فى مقدوره ما دام على ظهر البسيطة رجل يحاج ، وامرأة تدافع .

ان الرجل يفاخر بعقله وقوته ، فيستأثر لنفسه بالمركز الاعلى . وتعتز المرأة بدهائها وسحرها وجمالها ، فترى لنفسها الأحقية في تيهها ، وتتطلع للمكانة الاولى .

يفاخر هو بأنه الذى يعول المرأة ، ويحدب عليها . وتفاخر هى بأنها أخرجته للحياة ، ولولاها أماً لم يكن للرجل وجود .

يتهمها بضعفها وقلة ادراكها ، ويدل عليها بعقله وادراكه . وتتهمه هى بالقسوة والجحود ، وتتيه عليه بحنانها ورقتها .

وانك ان طلبت الرأي فى المرأة من الفريقين . لأجابتك المرأة من فم الآنسة مىّ « مارى زيادة » النابغة : بأنها روح الوجود ، وموحى الذكاء والهداية ، وأنها رسول الجمال والسلام فى هذا العالم الفاسد . ولسمعت مثلاً ، من الاستاذ « عباس محمود العقاد » ، كاتب مصر الكبير : بأن المرأة مفسدة ، ضعيفة ، حمقاء ، كالطفل الطائش ، لا يزال يلازمها كذبه ونزعاته .

وهكذا دواليك . ما دامت السيطرة على الكلام ، وقوة الاختراع ، رائد الفريقين .

* * *

ويصف الرجل المرأة بالكذب ، والرياء ، والتقلب ، والاثرة ، والطمع ، وقصور النظر ، والنزق ، وخفة الحلم ، وصغر الرأى والسفسطة ، والبله ، والحماقة ، والفجور ، والغرور ، والخداع ، والغدر ، والخيانة . وما إلى ذلك من مرتبات الضعف الذى يتصوره فيها . وليت شعرى ماذا ترك لها بعد كل ذلك من مميزات الخلقة ، ان كانت معدودة من الناس ؟

ان فى ذلك لصلفاً وكبراً من الرجل ، واعتداداً بالقوة الغاشمة ، وتعسفاً شائناً .

أفليس للعدل والانصاف وجود فى قلب من يحملون تلك الحملة القاسية على المرأة ؟

* * *

إننى أقرر بأن كثيراً من آراء الكتاب الذين مقتوا المرأة وحقروها ، لم تكن أذهانهم تملى عليهم أفكارهم فيها للحقيقة الصريحة . ولكنهم كتبوها ، أو على الاقل أكثرها ، تحت تأثير نفس متذمرة ، لشعور خاص ، وفى ظروف طارئة . ولعمرى لو كانت الحال غير ذلك لمدحوا المرأة وأطنبوا بذكرها .

هذا هو « لورد بيرون » ، مثلاً ، الشاعر الانجليزى الكبير . عاشق مفتون . وحبيب متقلب . وزوج ضال . يترنم بجمال المرأة حيناً ، ويحمل عليها بقسوة حيناً . وإن علمت كم أحب من النساء هذا الشاعر ، الذى مات فى سن السادسة والثلاثين ، وكم هجر ، وكم غدر بزوجات ، لعلمت تحت أى تأثير يكتب ، وبأى انفعال يحرر آراءه .

وهذا « أوروبيديس » الشاعر التمثيلى الكبير . الذى من كلماته المشهورة « حبذا النساء لى وحدى لو لم يخلقن للجميع » ، تراه عندما أباحت جمهورية اثينا قديماً لرجال اليونان زواج

اثنتين، تعجيلا للنسل وتعويضاً لخسائرها فى الرجال من الحروب والأوبئة، كان حظه أن وقع فى امرأتين شريرتين. عذبتاه بكثرة مشاحناتهما. فأصبح ذلك سبباً فى بغضه للنساء. وبقى إلى آخر حياته من ألد أعداء الجنس اللطيف.

وهذا هو «جان جاك روسو» كاتب الثورة الفرنسية، يعترف على نفسه بما كان يخالجه من أفكار فى المرأة يناقض بعضها بعضاً، وفاقاً لحبه المتنقل.

ولكن أمثال هؤلاء أقلية. فلا تزعجنا آراؤهم بجانب آراء الأغلبية الساحقة التى مجدت المرأة، وتلمست معنى الجمال فى حقيقتها وتكوينها.

* * *

إن المرأة — كما يقول «أرثرمي» الكاتب الانجليزى — لاتسن الشرائع وتصوغها، ولكنها تكون البرلمانات التى تسن الشرائع.. وهى لا تخلق مذاهب الفكر، ولكنها تخلق المفكرين: وهى لاتستنبط الآلات، بل توجد اولئك الذين يخترعونها. إن الرجل قد يبنى باخرة، ويقول لها سيرى فى عرض البحر، باسم الله مجراك، ولكن المرأة تربى قبطاناً يجعل الباخرة طوع

بنانه . وإن الرجل يقول لما يصنع ، إنك سترتفعين فى الهواء أو تمتطين متن الأرض ، أو تغوصين فى البحر ، وفاق النواميس التى لا يمكنك تعديها ، ولكن الأم تقول لولدها ، قد تكون المسيح أو شكسبير أيها الطفل الصغير ، وقد تصير مخلصاً لهذا العالم الضائع ، وشمساً تشرق فى ظلمائه »

ولكن الرجل لايريد منافساً له فى الحياة . ولذلك غضب من طلب المرأة المساواة به ، مدفوعاً بحب الاثرة والأنانية . فأعلن عليها حربه الشعواء ، وادعى عليها الضعف ، واتهمها بالنزق والطيش . فرأيناه يحاول تشويه هذا الجمال ، ليصل الى تحقير اربابه ، فيفشل تلك القومة الطامحة ، ويوقف ذلك التيار الجارف

وليت شعرى هل فاز الرأى القائل : « إن اليد التى تهز المهد هى التى تحكم العالم » ؟ وهل نجحت المرأة في دعوتها ، وهذا عصرنا نرى فيه بيننا الكاتبات يبززن امثالهن من الرجال . ونتلقى عن المرأة العلم والحكمة ، إذ تخطب وإذ تحاضر . ونسمع فيه بالمحامية والقاضية ، ثم أخيراً بالوزيرة ؟

* * *

خلقت المرأة لأن تكون شريكة للرجل . وليست هذه الشركة

فى أن تكون فقط خادمة له فى شئون بيته ، وما يلزمه من أكل وشراب ، وتربية للبنين . ولكن لأن تكون حادبة عليه ، عوناً له على متاعب حياته ، زميلة له فى همومه وأفراحه ، عضداً له فى مهماته . ولعمرى كم أظهرت النساء كفاءتهن فى ذلك فى القرون الاولى من الاسلام . ولكن الرجل أخيراً يكابر بصلف ، فينكر للمرأة كفاءتها ، ويصورها مملوكة مسترقة يستعبدها ويخضعها لارادته كيف شاء .

ولقد أضر ذلك بالمرأة وأفسد من أخلاقها ، وجعل الضعف والجبن من طبائعها . إذ أصبحت باستعباد الرجل ، وظامه لها ، تحسب نفسها عبدة أسيرة . بل إن ذلك هو الذى ولد عند المرأة عادة الكذب والمخاتلة التى يكرهها الرجل منها ، حين تخاف بأسه فتنكر وتكذب الحقيقة . وماذا كان يشوب عاطفتها الرقيقة ، وقلبها الحنون ، وجمالها الساحر ، ووداعتها ، ولطفها ، لولم يكن الرجل هو الذى اضطرها لتدخل تلك الظواهر الذميمة على أخلاقها . « وإن كثيراً من الناس يريدون أن يكون خضوع المرأة المطلق حقاً من حقوقهم . وهذا شين مزرى لهم وللمرأة التى يريدون تقييدها بهذا الحق » .

نعم . فقد يقول « تاجور » — : إن أفكار النساء صغيرة

منعوجة . وليس ذلك ذنبها . ألا ترى أقدام الصينيات صغيرة ؟ فما الذى صغرها غير الضغط عليها منذ الحداثة ؟ »

فلماذا يستنكر الانسان من المرأة نزعاتها ، وهو الذى سبب سوءة هذه النزعات ؟ لماذا يجاهر الرجل بضعف المرأة وخمولها ، وهو الذى جعلها ضعيفة خاملة ؟

ولكن لتسعد المرأة . فان الرجال قد جعلوها بمطالبهم الجائرة توقظ كل ما كان هادئاً فيها . وستنال عظمتها من استسلامها اليهم .

وسيكون اليوم الذى يتحقق فيه رأى « تاجور » الذى يقول : إن المرأة اليوم ساكنة عميقة كالبحيرة ، ولكن الضغط يشتد فيها تباعاً . وستهيج حتى تخرب الجسور ، وتخرج منها تلك القوة السجينة ، فتطوف العالم ، وهى تزأر ، وتقول — أريد » .

احمد يوسف

المرأة المصرية

قيمتها — احترامها — حياتها

قديماً وحديثاً

المـــرأة

فى التاريخ المصرى القديم

المرأة :

هذا المخلوق النافع الجميل . الذى أخرجه الله من ضلع الرجل منذ نسمة الحياة الاولى ، ثم قال له كن جمالاً ، فكان . وأوحى اليه أن يملأ الدنيا محبة وحناناً ، فكان خير رسول يصدق فى تبليغ هذا الايحاء وتلك الرسالة .

وكان النعمة الموهوبة لبنى الانسان ، التى أطلقت لسان الفيلسوف الانجليزى العظيم ، چون رسكن ، تلك العبارة الخالدة : « لو لبس النساء ثياب الحداد ، ووقفن أمام حرب عالمية ، لما استمرت هذه الحرب مدة أسبوع » . . .

هذا االمخلوق النافع ، لا ريب أن يكون له مكانته واحترامه فى مدار التاريخ . ولكم كنا نكون سعداء لو كان الانسان الاول ترك لنا أثراً من آثار زوجيته ، أو الكيفية التى سار عليها فى بناء أسرته ، على الوجه الذى يقفنا على التقدير والاقتباس . ولكننا ربما وقفنا على شىء من ذلك ، من بدء التاريخ الذى حدده لنا الملك المصرى الأول « منا » ، والذى يبدأ به تاريخ

قدماء المصريين . فمن تلك التدوينات التى خطها لنا أجدادنا على أوراق البردى ، ومن تلك الآثار المصورة التى خلفوها لنا فى انحاء البلاد ، أمكننا أن نستخلص صورة ، ولو أنها غير كاملة الدلالة إلا أنها قد يمكن أن تعطينا فكرة صائبة عن كثير من نواحى الحياة الاجتماعية ، التى كان عليها هؤلاء الأجداد . هذه الصورة هى التى أحاول هنا أن اكشف عنها لحضرات القراء .

* * *

أمامنا بعض نواح ، نأخذها كرؤوس لموضوعات ، فى حديثنا عن المرأة :

المرأة كعضو فى الحياة العامة ، ودرجة تعليمها واستعدادها .

المرأة كزوجة ، ومقدار شعورها بالواجب عليها ، وشعور الزوج نحوها .

الزواج . المهر . الجهاز . تعدد الزوجات . الطلاق .

المرأة وحقوقها الشرعية والمدنية .

اختلاط الجنسين .

الزواج بالاجنبيات .

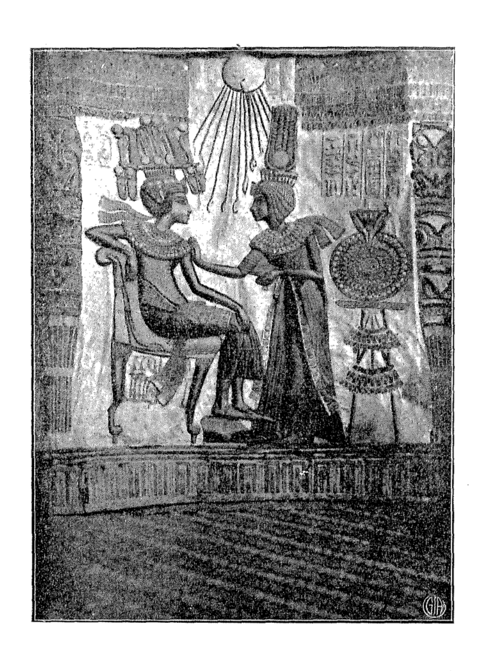
مدى حرية المرأة .

ولقد كان لكل تلك النواحى فى التاريخ المصرى القديم أثر واضح فى المرأة المصرية .

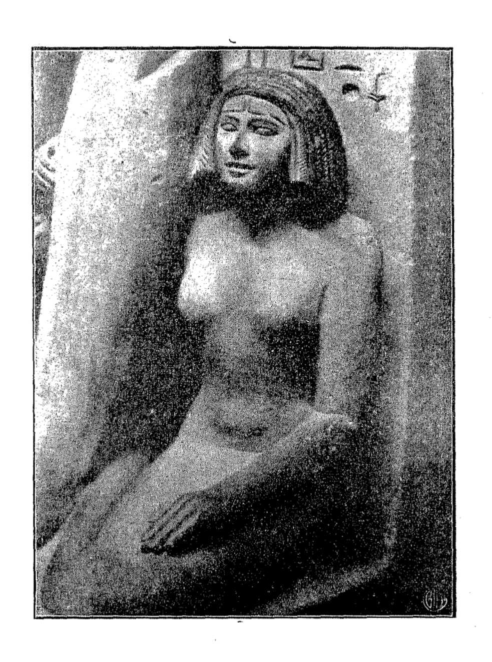
* * *

لقد تلقى نظرة واحدة على الجدران المصورة فى مقابر صقارة وطيبة وتل العمارنة ، فيتضح لك منها طرف من شخصية المرأة عند المصريين القدماء . فانك ستشاهد فى مقابر الملوك والعظماء ، التى تصور معهم فيها زوجاتهم ، صور أولئك الزوجات يصحبن الازواج غالباً . إما وهن عاكفات عليهم يدللنهم ، وإما وهن يقدمن اليهم المرطبات والعطور . وقد تجد صورة ناطقة بذلك فى آثار « توت عنخ أمون » . ذلك الملك الشاب ، الذى وضع صورة حياته وسعادته ، بل قلبه وروحه ، فى كرسى عرشه ، إذ صور امرأته إلى جانبه على ظهر العرش ، الذى يجلس اليه فى مملكته . وهو متعب يستريح ، وامرأته ، تلك الزوجة الوفية ، تحنو عليه ، تدلله بيد ، وتقدم اليه بالأخرى قدحاً من المرطبات . وليس أعظم من ذلك دليلا على قدر المرأة قديماً . بما فى تلك الصورة من دلالة صادقة لأثر الحب ووفاء الزوجية واحترامها .

ولكنك مع هذا الاعزاز والتقدير من جانب الرجل للمرأة ، لا تجدها تذهب للغرور والمكابرة . فانها كانت تفهم حقيقتها تماماً . وتعرف أين مكانها من الرجل . وتدرى واجبها الذى خلقت لاجله . فتراها فى كثير من النقوش القديمة ، فضلا عن ظهورها بجوار الزوج أو خلفه ، تصور جالسة عند أقدامه . وهي دائماً فى حجم صغير بالنسبة لصورة الرجل .



صورة الملك « توت‌عنخ أمون » وامرأته « عنخ اس ا ن أمون »
على ظهر كرسى العرش



زوجة « آخى » جالسة عند أقدامه . وهى فى صورة أصغر بالنسبة الى تمثاله الذى يظهر جزء من ساقه . والتمثال من آثار الدولة القديمة ، وموجود بالمتحف المصرى .

المرأة المصرية

فى الحياة العامة :

إذا أردنا أن نتحدث عن المرأة المصرية القديمة كعضو فى الحياة العامة ، لوجب علينا أن نحنى الرأس إجلالا وتقديراً ، لتلك الشخصية الفذة ، التى مثلت الثقافة والمدنية فى كثير من معانيها الجميلة . وربما كنا — كمصريين — أولى الناس بأن نعود الى تلك الأم المهذبة الحكيمة ، الأم المصرية القديمة ، التى لا ندرى — ونحن نجهل أنسابنا ، بل نجهل جدنا الثالث — أمن سلالتها نحن درجنا ، أم بآخر عهدها ، الذى قلبته الرومان ، ثم العرب ، ظهراً على عقب ، انقطع التاريخ ؟

ربما كنا نحن المصريين ، ونحن لا نزال نثق بصلتنا بذلك التاريخ المجيد ، تاريخ المصريين القدماء ، ونقدرهم كأجداد لنا ، عاشوا بمصر وعشنا بها ، ونسلوا فوجدنا بعدهم أنفسنا . وأصبحنا وعاداتنا كعاداتهم ، وطبيعتنا كطبيعتهم ، وأخلاقنا كأخلاقهم ، مصريين كما كانوا ، وارثين ذلك المجد الذى خلفوه فى أرضهم ، التى أصبحت بعدهم أرضنا . ربما كنا أولى بأن نعود إلى تلك الأم

المصرية ، فنتلقى عنها دروس الحياة والثقافة . فلقد كانت حقاً جديرة بأن تلقن الاجيال المتعاقبة دروس الحياة والثقافة .

* * *

واننا إذا لم نأخذ بأقرب المحسوسات لتقرير مكانة المرأة عند الرجل ، كأم أخرجته للوجود ، وأخلصت فى إنشائه وتكوينه ، أو أخت تتفانى فى خدمته وتعطف عليه ، أو زوجة تندمج فى شخصيته وتتحد بروحه ، أو ابنة لها منه المحبة والاشفاق والحنان . إذا لم نأخذ بتلك الحقيقة كمبدأ للدلالة على قيمة المرأة فى الحياة العامة ، فقد يكون أمامنا مع ذلك صورة أجل فى المرأة المصرية القديمة ، ذلك أنها كانت فى حقيقتها ، وفى نظر المصرى القديم ، تجمع كل هذه الاعتبارات . فقد كانت عنده الزوجة والأم والأخت والبنت جميعاً . بل كانت لدى الزوج كل شىء ، أو هى الحياة فى كل معانيها . وكثيراً ما كان المصريون القدماء يبوحون بذلك علانية .

ولقد يكون لدينا أيضاً صورة أخرى ، أوفر دلالة على منفعتها العملية فى اشتراكها مع الرجل فى جميع الشئون . فقد ترى على النقوش القديمة تعمل معه يداً بيد ، فى الحقل حراثة وغرساً

وحصاداً ، وفى السوق تجارة وبيعاً ، وفى مطالب المعيشة من الطبخ وتجهيز الخبز وعصر الخمور والنسيج ، إلى غير ذلك .

وهل من مثل على مركز المرأة فى الحياة المصرية القديمة ، أبلغ من أن يعلم بأن الرجل المصرى لم يكن يعد نفسه فى بيته إلا ضيفاً على المرأة زوجته ، لا يعارضها فى شئون البيت . بل انها لتأمر وتنهى كيف تشاء ، وهو فى شأنه منعكف على عمله الخاص ، يجد لرزقه ورزقها . وهى فى البيت الأميرة المطاعة المحبوبة ؟

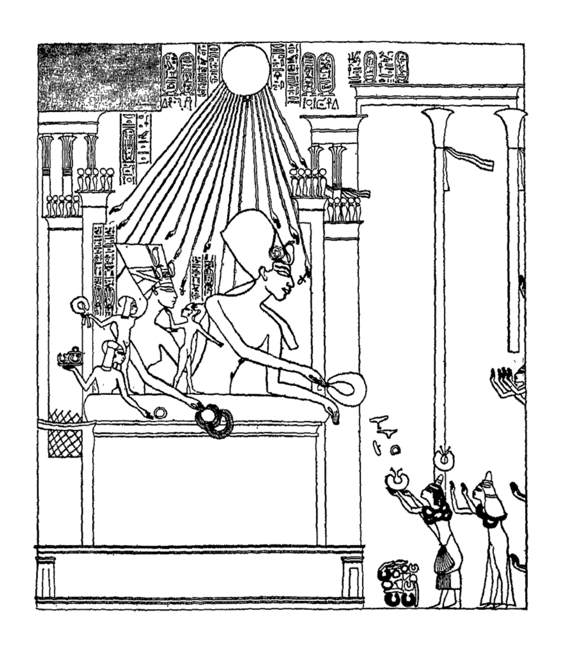
بل انك سترى ، مما سنجمعه تحت عينيك فى هذا الكتاب ، أن المرأة المصرية القديمة قد بلغت بمركزها فى الحياة ، من الاجلال والتقدير ، بل من العظمة والسمو ، ما لم تبلغه أخت لها على ظهر الارض . بل يمكنك أن تقرر بأنها لم تجارقديماً ولاحديثاً . فكأنما تلك المدنية ، التى يفغربها الغربيون افواههم ، ويتمشدقون بها تيهاً واعتزازاً بقدر المرأة ومركزها عندهم ، لم تكن إلا تابعة لتاريخ مصر القديم .

* * *

ولقد يكون لحقوق المساواة ، التى تطالب بها المرأة اليوم

أثر عند المصريين القدماء ، فى تلك الصورة التى تخلفت لنا عن فن العمارنة (اخيتاتون) . وتظهر فيها الملكة « نفرتيتى » زوجة الملك « امنحتب الرابع » ـ اخناتون ـ وقد وقفت إلى جانبه فى المقصورة الملكية ، توزع العطايا والهبات من حلقات الذهب على الحكيم الكاتب « آى » وزوجته ، على مرأى من الشعب ، تقديراً لخدماته ، وتكريماً للعلم فى شخصه . وتنظر مع الملك فى صالح الجمهور . وفى ذلك ما فيه أيضاً من الدلالة القوية على مركز المرأة العظيم قديماً .

أما عن حظ المرأة من التعليم . فقد كانت لا تحرم من تلقى العلم فى منزلها إذا وجدت عندها استعداداً لذلك . فضلاً عن أنها كانت من التهذيب الخلقي ، والاتزان النفسى ، على جانب عظيم. يكفى للدلالة عليه أن تجد المصرى القديم يشيد بذكرها فى غالب نقوشه ، ويتحدث باحترامه لها واعجابه . وما أبلغ مثلا على قدرها فى الثقافة والعلم من أن تصل لتعتلى عرش مصر ، ذلك العرش العظيم السامى ، الذى كان يعز على الجبابرة ، والذى كان مركزه يتطلب اليقظة الدائمة ، لما كان يشغل مصر فى تاريخها القديم من الحروب المستمرة داخلاً وخارجاً ، وما كانت تستلزمه إدارة البلاد وممتلكاتها الواسعة من جهد وحرص . وهذا هو



جانب من منظر كبير . يمثل الملك « اخناتون » والى جانبه الملكة « نفرتيتى » وأولادهما . يوزعون الهبات على الحكيم « آنى » وزوجته ، أمام الشعب .

التاريخ يذكر لنا تبوأ النساء مركز فرعون . ويعطينا فى الملكة (حاتشبسوت) مثلا على ذلك . وتلك آثار الملكة العظيمة تركتها شاهداً على قدر النساء من العلم ، وقدرتهن فى إدارة البلاد والأخذ بشئونها .

وقد كان القضاء المصرى القديم يحترم رأى المرأة المتعلمة ، فيترك لها المجال لأن تتولى الدفاع عن نفسها فى شكاواها ، مباشرة بدون من ينوب عنها ، وكان المحلفون يستمعون لها كشخصية مثقفة محترمة . (١)

وقد نختم باب المرأة المصرية كعضو فى الحياة العامة ، بأن نسجل أثراً خالداً لمكانة المرأة عند الرجل ، فى أن المصريين كانوا فى عباراتهم الجنازية ، التى يتوسلون فيها الى ربهم بالغفران عن اخطائهم الدنيوية ، لا يغفلون ذكر الزوجة عادة ضمن اعترافهم بالحسنات التى أدوها فى حياتهم . فتجد المتوفى يقول فى جملة عباراته عن نفسه :

« . . . . انى كنت يا الهى والداً لاولئك الايتام (يقصد الذين تيتموا بموته) وزوجاً لتلك الأرملة . . . الخ »

وفى عبارة أخرى نجد آخر يقول :

---

(١) Petrie — Social Life in Ancient Egypt.

« .. إننى أطعمت الاطفال بيدى، وعطرت الارامل ..
(أى عمل لهن التواليت !) ... الخ » (١)

وقد تلمح فى مثل تلك العبارات صورة ناطقة بسعادة الحياة الزوجية وجمالها عند المصريين القدماء .

* * *

أما آثار الحب ، وللحب فى جميع مراحل الحياة آثار لا تنكر، فقد كان المصريون أسبق الأمم التى قدرت مكانته ؛ واعترفت بسلطانه على النفس . تلك الامة التى مهدتها طبيعة بلادها الهادئة، الوافرة الجمال على أن تفهم معانى الجمال، وتقدره فى المرأة، التى ما هى إلا رسوله على الارض. وانا لنذكر مثلا من أمثلة العاطفة عندهم ، وفيها فكرة ناهضة برأى فى موضوعنا الذى نأخذ به .

فقد كتب واحد من المصريين ، على ورق البردى ، هذه العبارة فى جملة غرامياته . متحدثاً إلى حبيبته .

« أليس فؤادى مشغوفاً بحبك ؟ »
« أنا لا أتركك ولو ألحقوا بى أشد أذى »
« أنا لا أطاوعهم وأترك روح فؤادى »

---

(١) Petrie — Social Life in Ancient Egypt.

وجاء فى عباره أخرى . وما أروع كلماتها وأصدقها :

سأذهب إلى فراشى مريضاً بداء الغرام »
« فان أتى جيرانى ليعودونى »
« وأقبلت حبيبتى بينهم »
« فانها ستزجر الطبيب الذى يعالجنى ، لأنها الوحيدة
التى تعرف دائى » (١)

المرأة كزوجة :

ما نظن القارىء الا مقدراً مكانة المرأة المصرية كزوجة فى الحياة العامة ، زوجة جديرة ، محبوبة ، محترمة ، بعد ما عرف من شأنها ما عرف من العلم والخلق والكفاءة .

هذه المرأة التى قلنا إنها مع غاية اعزاز الرجل لها واحترامه ، لا يأخذها التيه والكبر ، بل تقدم اليه مثلا عالياً على اعترافها بالجميل . بأن نراها على النقوش القديمة تصور خلف الرجل ،

---

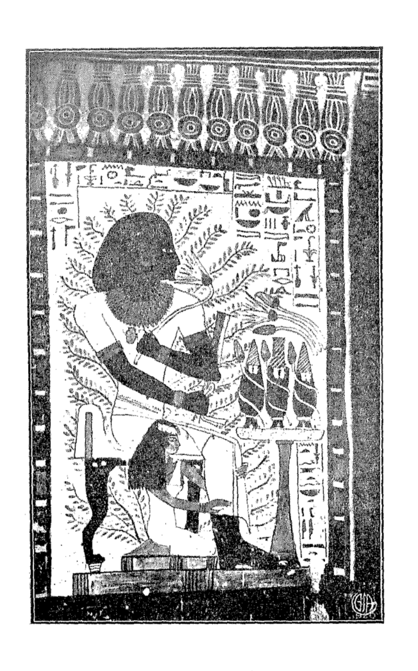
(١) Erman

أو تجلس عند أقدامه . والتى قلنا إنها كانت فى منزلها الآمرة الناهية لا تعارض برأى ، بل يطلق لها الزوج الحرية الكاملة فى حدود البيت ، ويقدرها كربة مملكة ، حاسباً نفسه ، وهو فى بيته ، ضيفاً عندها . لا ريب أن تكون هذه المرأة التى يذهب الزوج فى اعزازها الى هذا الحد ، خير زوجة يطمح الرجل اليها .

وكم ذا يكون من الثقة ، والشعور المتبادل بين الزوج والزوجة ، دعامة لسعادة الزوجية وهنائها .

* * *

ولقد كانت الزوجة تسمى فى لغة المصريين « نبت پر » أى سيدة البيت أو ربته . وكانت حياتها الزوجية مبنية على أوفر نصيب من الحب والوفاء . الحب والوفاء اللذين يحرم منهما اليوم كثير من بيوتنا ، واللذين تتقوض بانعدامهما من البيوت أركان الأسر . وإنا لندلى اليك بمثل على ذلك الحب والوفاء ، فى قصة رجل كان يحب امرأته ، فماتت ، فحزن عليها جهده حتى ضعف ومرض . فاذ عرض أمره على ساحر ، أخبره هذا بأن سر مرضه غضب امرأته عليه . وأمره أن يستعطفها ، ويطلب الصفح منها ، بخطاب يكتبه على اسمها ـ وكان اسمها عنخ ارى ـ ويضعه فى قبرها ،



سنفر ، وأخته جالسة عند أقدامه

من مقبرته بطيبة

ثم ينتظر منها الرضا والغفران . وقد وصلت الينا صورة هـذا الخطاب فى بردية محفوظة الآن بليدن . فاذا به مثل من الأمثـلة الصريحة على مقدار احترام الرجل للمرأة ، وتقديره لشخصيتها وقد جاء فى الخطاب :

« من يوم زواجنا للآن لم أعمل شيئاً أخاف أن تطلعى عليه فتغضبي منه . تزوجتك ، وأنا لا أزال غصناً رطباً . ولازمتك ، وكنت لا أفارقك ، فى الوقت الذى كانت تضطرنى فيه الظروف لفراقك ؟ . . أنا لم أعمل في حياتى ما يضر بك ، أو يحزن فؤادك . فلماذا أحس بنفسى فى هذا الكرب الذى أعانيه . . . لقد ارتقيت الى جميع المناصب ، وكنت معك . وعندما تقلدت قيادة جيش فرعون المشاة مع قوة الفرسان ، جعلتك تقدمين علىّ لينحنى الجميع بين يديك احتراماً . وقدموا اليك من الهدايا كل ماهو جميل . وإذ مرضت بالداء الذى أضناكِ ، قصدت رئيس الصيادلة ليجهز لك الدواء ، فصنع كل ما كنت به تشيرين . وعندما صحبتُ فرعون فى رحلته الى الجنوب كنت دائماً أفكر فيك . وقضيت تلك

الثمانية اشهر لا أهتم لطعامي وشرابى . ولما حانت
عودتى لمفيس ، أسرعت باستئذان فرعون ، وقصدت
اليك . ثم احترقت عليك حزناً امام منزلى مع
رجالى . »

وفى هذه القصة ما يكفى وحده ليعطى الدليل الصادق على جمال الزوجية فى التاريخ المصرى . ولكن هناك أمثلة اخرى كثيرة ؛ بلغت كلها من الروعة ما بلغت هذه القصة .

وقد نقتصر لنورد للقارىء ما هو أصدق برهاناً من كل شيء . فى كتاباتهم انفسهم ـ وليس أصدق من العبارات التى يدونها الانسان بنفسه ـ وللمصريين فى عالم الأدب بلاغة جديرة بالذكر ، فى الحكم والنصائح التى كانوا يضربونها . وقد رأينا فى كثير منها ما سبق جميع آراء الكتاب فى انحاء العالم ، فى الاجتماعيات وفلسفة الحياة .

ويكفى أن ننقل اليك نصائحهم فى واجبات الزوجية بدون تعليق ، فانك ستحكم بنفسك على عظمتهم وتوفرهم على الثقافة العالية ، التى تضارع اكبر ثقافات العالم الحديث . فقد جاء فى وصايا (بتاح حتب) فى نحو سنة ٣٢٠٠ (ق . م) :

« إذا كنت رجلاً عاقلاً ، فأحكم شئون بيتك، وأحب زوجتك كلياً وصدقاً . أطعمها واكسها . أحبها بعاطفة ، وحقق رغباتها فى طول حياتك . لأنها الشخصية التى تخلع الجزاء الأوفر على صاحبها . لا تكن قاسياً معها ، فانها أيسر أن تملك باللين منها بالشدة . راقب كل ما ترغب ، وكل ما تذهب اليه افكارها . ومن ثم ، أتريد أن تبقى لك فى بيتك ؟ اذن فلا تعارض ارادتها ، فانك بذلك تفقدها . »

وفى عبارة أخرى من كتاباتهم ، يحللون لك مدى علمهم بخلق المرأة ، ومدى حكمتهم فى سياسة البيت ، التى تتوقف عليها سعادة الأسر . فتقرأ لهم :

« لا تكن فظاً مع امرأة فى منزلها ، اذا كنت تفهمها تماماً . لا تقل لها ما هذا ؟ انزعيه من هنا ؟ اذا كانت وضعته فى مكانه الصحيح ، وكانت رأت ذلك عيناك . واذا كنت صامتاً هادئاً ، فانك لتتوفر على معرفة طبائع المرأة . وكم هو بهجة أن تعاونها يداً بيد » (نصائح آنى)

(وليس فى الترجمة التى نكتبها ، فى كل عبارات هـذا الـكتاب ، أى تصرف عن الأصل بل تكاد تكون حرفية كالمدون بالأثر تماماً)

واسمع لهم إذ يعبرون لك عن عاطفتهم ، وحبهم للمرأة المشبع بالحنان والولاء :

« اذا جلبت عذراء اليك فأشبع قلبها حناناً . إن لهـا الحق فى أن تقربها اليك . إنها لتعد قربها منك لحظة سعيدة . لا تقصها عنك بعيداً . بل قرب فمها من فمك ، واملأه قبلات » [1]

أما شعورهم بالواجب نحو البيت ، فيتجلى لك في هذه العبارة التي يقول فيها أحد فلاسفتهم :

« ان الرجل الذى يستجوب عن كل شىء ، ويقضى يومه فى تلقط الهفوات ، لا يبقى له من وقته لحظة هناء . والذى يجنح الى اللهو والترف ، لا يوفر نفسه لبيته » (نصائح بتاح حتب)

(۱) Revillout

وحيث كان هذا هو غاية تقديرهم للزوجية ، فهل كانوا سعداء فى بيوتهم ؟ أم كانت المشاغبات ، والمنازعات ، وسوء التفاهم الذى ينشأ عن قصر النظر ، ومصائب الحموات ، مثلا ... تعكر عليهم صفوهم ؟

هذا سؤال يصعب الجواب عليه ، وان كانوا أرونا غالباً فى رسومهم ما ينطق بسعادتهم . قد تكون سعادة شخصية ، لا ينعم بها سائر الشعب . ولكن كيف نصل الى صميم هذا الموضوع ، ولم تجد علينا البحوث بأكثر مما لدينا .

غير أننا قد نجزم بأن الحالات الشاذة — ولا بد لكل أمة فى الدنيا من حالات شاذة — والمشاكل والشكاوى فى الزوجيات ، كانت قليلة جداً . لحد أن الذى وصل الينا منها لا يمكن أن نجعله قياساً بأى حال . بل إن الشعب المصرى كله كان عند فكرة واحدة فى تقدير الزوجة واحترامها .

الزواج :

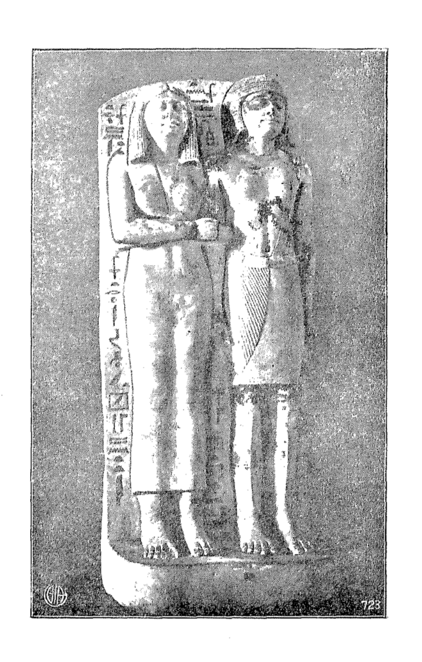
اذا كانت الدنيا عمرت وخلدت ، من عهد ما نفخ الله الحياة فيها ، برجل وامرأة . فان ارادة الله ، التي أوجدت آدم وحده أولاً على الارض ، هى التى خلقت له حواء ، قطعة منه ، لتشاطره الدنيا وتشاركه الحياة . لأن حكمتها أدركت فى الرجل الضعف عن الاستقلال بنفسه ، فجادت عليه بأغلى هدية توهب ، وأجل نعمة تعطى . وكانت المرأة .

وأصبحت الدنيا عند الحقيقة رجلا وامرأة ، يكونان زوجية متعاونة متحدة . ثم كان من تلك الشركة النابضة ما نسميه الانسانية ، أو العالمين .

وقد عقد آدم وحواء أول وأبدع زواج شهدته الدنيا ، إذ لا ريب أن يكون قد تم على الفطرة والسذاجة . امرأة ورجل ليس على الدنيا غيرهما ، والدنيا كلها لهما ، فما كان أسعد هذا الزواج .

ثم تدرجت الانسانية بعد ذلك ، فتزاوج الأبناء والأحفاد ، زيجات لا يعلم إلا الله كيف كانت من النظام والاطمئنان .

وللاسف لم تقف على المعلومات الكافية للكيفية التى



صورة تمثل العطف الزوجى والمساواة

تمثال « نفرحتب » وزوجته « ثنتى »

من الدولة القديمة ، وموجود بالمتحف المصرى

كان عليها أمر الزواج فى عهد الاسرات المصرية . فان ما أظهرته الاكتشافات الأثرية لا يشجعنا على أن نقرر نظاماً أو نجزم برأى .

أما الشواهد فتدل نوعاً ما على أن البنت كانت تخطب للطالب وهى بعد طفلة صغيرة السن . ويظل معروفاً صاحبها حتى تشب . فان أتمت الخامسة عشرة ، فهى إذن فى حد الكفاءة لأن يعقد عليها كزوجة ، إذا شاء خطيبها .

وحيث كانت المرأة المصرية سفورية ، لا تضع على وجهها قناعاً ، ولها من الحرية فى الحركة والانتقال ما تشاء ، في حدود العفة والأدب ، فلعل الخاطبات ، اللائى هن عندنا وسيطات بين الراغبين فى الزواج ، فى تعارف أهل الخطيبين ، والتوفيق بينهم فى شأن المهر والتدابير الاخرى ، لم يكن لهن أثر في التاريخ المصرى القديم . فاستراح من شرهن القدماء .

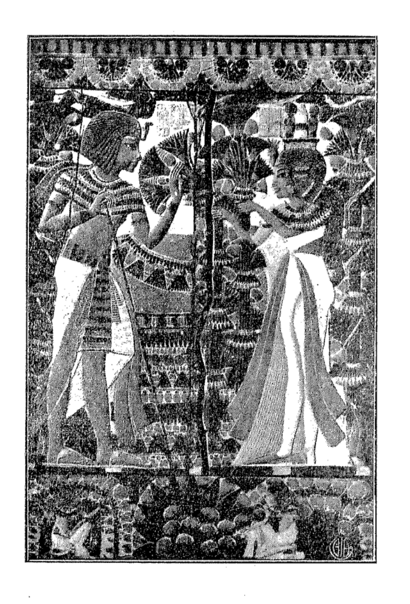
وكذلك قد لا يكون عند المصريين ما نسميه عندنا يوم « كتب الكتاب » ، يحتفلون به كما نحتفل ، كأنه يوم زواج آخر . ولم نستدل على مثل ذلك فى تاريخهم كلية . وقد قلنا إن البنت من صغرها يعرف صاحبها ، فإن كان ذلك — والمصريون فى طبيعتهم المعروفة كانوا على غالبيتهم يفضلون

الزواج بالقريبات من الأهل ، كبنات الأعمام والاخوال ، وبنات العمات والخالات . ويكفى بين هؤلاء الاشارة بمن يميل اليها الفتى منهن ، دون ما ضرورة للتوثيق بكتابة أو « شبكة » — فما أسعدها حال ، من توثيق عري الألفة والتعارف بين نفسين تتفقان منذ الصغر ، وتتعودان الحياة معاً .

كان يوم « كتب الكتاب » — العقد — هو يوم الزواج . يوم واحد يتم فيه العقد و « الدخلة » وما نظنهم كانوا يتبعون نظام « الشبكة » كما عندنا ، لانهم كما قلنا ، يكادون يتقيدون فى الزواج بالقريبات : فتيان الاسرة الواحدة بفتياتها .

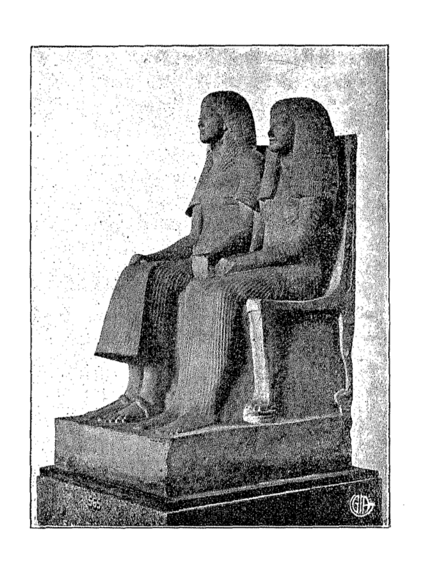
ويمكننا أن نقول ، مستندين الى بعض تدوينات ، أن الزوج كان يقرر قبوله للزوجة بين فريق من أهله وأهلها . ويكتفى فى ذلك بالكلام . فاذا حان وقت الزواج ، دخل عليها فى احتفال يتوقف نظامه على مقدارهما من الجاه . وكان يعقد هذا الزواج عادة بغناء ورقص ، على الطبل والناى ، ويشترك فى مهرجانه النساء والرجال معاً ، وتدار فيه أقداح الجعة (البيرة) ويكثر من شربها ، وتعطر رؤوس المدعوات من النساء بالزيوت ، ويهدين بالزهور .

* * *



توت عنخ أمون وزوجته

فى منظر يمثل العاطفة والحنان الزوجى



زوج وزوجة جالسان على كرسى واحد طويل (كرسى مزدوج) .

وذراع أحدهما ملتصقة بذراع الآخر

والتمثال موجود بالمتحف البريطانى .

كان هذا نظام الزواج فى عهد الاسرات المصرية . إلى أن رأينا فى آخر الدولة الحديثة ، ولا سيما فى عصر الاسرة السادسة والعشرين ، أن الزواج امتد على أوسع مجال ، الى غير أسرة الزوج . فللفتى من يرغب فيها من بنات الغير . ويعقد عليهما فى المعبد بحضور الكاهن الكبير — نائب الملك — ويتم العقد كتابة على هذه الصورة :

« فى سنة . . . فى يوم . . . من شهر . . . من حكم الملك . . . دامت له الصحة و العافية .

« فى هذا اليوم دخل المعبد . فلان بن فلان . نحو فلانة . بنت فلان . التى أعجبته كزوجة . كامرأة شريكة له . كأم جديرة بأن تنقل حقوق الاسرة الى ذريتهما . وأصبحت له زوجة من يوم العقد » (١)

ثم أظهرت الاكتشافات نظاماً لعقود ، كانت تكتب بين الزوجين . وقد انتشرت هذه العقود من أواخر الاسرة السادسة والعشرين . وأقدم ما وصل الينا منها ما يحمل تاريخ ٥٩٠ ق.م . ثم كانت هى النظام المتبع فى عهد البطالسة .

---

(١) Revillout

وهذه العقود تشبه الأوراق العرفية فى الوقت الحاضر ، ولكنها تفوقها كثيراً من جهة التعبير . حبذا لو كانت الأوراق العرفية الحديثة مثلها فى النظام والتحقيق . فهى من الروعة بحيث يتمنى كل جيل أن ينسج على منوالها ، إذ تتوفر فى عبارتها شئون الحياة الزوجية كلها .

ونظام الزواج بموجبها كان على هذه الحال :

يدخل (ا) مثلا بيت (ب) ليخطب ابنته (ج) ويعلن رغبته فى اتخاذها زوجة . ثم يعطى (ب) لابنته (ج) قدراً من الفضة وآخر من القمح (٦) أوقيات من الفضة مثلا ، ونحو خمسين كيلا من القمح) . فيحلف (ا) اليمين على أنه إن هجر (ج) بسبب البغضاء أو تفضيل غيرها عليها (فيما عدا حالة الخيانة الكبرى التى قد توجد فى المرأة) فيكون ملزماً باعادة الصداق لها . ويتنازل عن نصيب من أملاكه الخاصة والموروثة للاولاد الذين تضعهم منه . (١)

ونورد لك هنا أجمل العقود التى نعرفها . وقد كتب فى سنة ٢٣١ ق . م . وتم بين رجل يدعى « إمحوتب » وامرأة تدعى « تاحاتر » . وصورته هكذا :

---

(١) Petrie

« لقد اتخذتك زوجة . وللاطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك ، وكل ما سأحصل عليه . الاطفال الذين تلدينهم لى يكونون أطفالى ، ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء مطلقاً لأعطيه الى آخر من أبنائى (اذا تزوج غيرها) أو الى أى شخص فى الدنيا . سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفى لطعامك وشرابك كل عام . ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهرياً وسنوياً ، وسأعطيه اليك أينما أردت . وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة . وإذا اتخذت ضرة لك أعطيتك مائة قطعة من الفضة . ويقول أبى : تناولى عقد الزواج من يدابنى كى يعمل بكل كلمة فيه . إنى موافق على ذلك »

وقد شهد على هذا العقد ستة عشر شخصاً (١)

ولعمرى ما نظن أقوى من ذلك بياناً فى التعبير عن واجب الزوجية وحقوقها . وإنه لسلاح وحجة فى يد الزوجة ، تعيش

---

(١) دليل المتحف المصرى . والأثر مدون بالمتحف تحت رقم ٢٥٠٦ B .

بموجبه مع الزوج على وافر من الطمأنينة والهناء .

وهو فى يد صاحبته « حكم مشمول بالنفاذ » يوفر عليها كثيراً من متاعب المحاكم ومشاكلها .

فهل علم بذلك حاملات الاوراق العرفية فى هذه الأيام ، المعذبات ، المرهقات ؟؟

وهل تطمع فى مثل هذه العقود النساء المخطوبات ؟ ؟ . . .

المهـــــر :

الكلمة التى تكاد تسمعها دائماً ، عند ما تحن نفسك إلى الزواج ، وترغب جدياً فى خطبة فتاة ، هى : كم تدفع فى سبيلها من المهر ؟ تكاد تسمعها قبل أن يعلم أهل الفتاة من أنت !

ونظن أننا أصبحنا نعيش فى دنيا ماديات لغتها الجنيهات والقروش ، ولا يجمع قاموسها غير المال ومرادفاته . ولكن أن تنشأ بسبب المال أزمة الزواج ، فقد كان يجب أن يكون

المال آخر ما يفكر فيه . لأن الانسانية تعمر بالزواج أكثر ما تعمر بالمال . ومن ذا يجلب المال ، إذا لم يخلق الزواج الرجال ؟

وما كانت المرأة على ما نعلم بضاعة تشرى ، فيساوم فيها . ولكنها حياة تريدها المرأة كما يريدها الرجل . والمرأة شخصية أسمى من أن توزن بالنقد ، وتباع فى سوق الخطوبة بيع السلع .

فهذا المال الذى يشترطه أهل الفتاة ، دون ما يقدرون شخصية الخاطب ، هو لعمرى شذوذ وإرهاق .

* * *

لقد صدرت الانسانية على أوفق ما يكون أخذاً بشئون الزوجية وكلفتها . فلم يكن يتكلف الانسان الأول إلا أن يصدر من فيه كلمة واحدة ، يشير بها إلى الموافقة على اتخاذه زوجة معينة . فان تم الاقتران ، تعاون وإياها على الحياة ، وتحايلا معاً على الرزق . ومهد هو للسكنى والمأوى ما يلزمهما ليعيشا هانئين مطمئنين .

وهكذا تدرجت الانسانية حتى عصر التاريخ الذى حدده حكم الملك المصرى الاول « منا » . فكانت الزوجية ، رجلاً وامرأة ، يتفقان زوجاً وزوجة ، فيتعاونان على الحياة قلباً ويداً .

ثم كان أن حدد العرف صداقاً يدفعه الرجل للمرأة، أو والد الفتى لوالد الفتاة . وقد علمنا بوجود هذا النظام فى عهد الأسرات المصرية. فاذ كانت الأسرة السادسة والعشرون، أو أواخرها، تغير نظام الزوجية كثيراً وتغير معه أمر الصداق أو المهر . وقد تأثرت المدنية المصرية فى ذلك العصر بمدنيات اخرى، كالفرس والاغريق . فرأينا الصداق لا يدفعه الرجل، بل تقدمه المرأة للرجل . وهو تماماً عين النظام الذى نقلته المسيحية فيما بعد، وسارت عليه، والمعروف باسم « الدوطة » . وهى حتى اليوم تدفع من جانب الزوجة .

ولم يكن المهر أو الصداق، فى كلا الحالين، سواء كان من الرجل أو المرأة، بباهظ القدر أو مشتطاً فيه . فقد كان من نقودنا الحالية بما يوافق ٣٠ جنيهاً لأكثره قيمة، وجنيهاً واحداً لأقله . وكان يدفع أوقيات من الفضة ومكاييل من الغلال، تزيد وتقل قيمة بمقدار كفاءة الشخص . (١)

ولما كان الاسلام، حدد النبى الكريم، صلى الله عليه وسلم، خطوبة الفتاة « ولو بخاتم من حديد » . أى أنه جرى

---

(١) Petrie. — & — Budge.

مع العرف الى أقصى حدود السماحة . فاذا بتاريخ الشرق بعد ذلك يشهد تلك الأعجوبة ، ولم يمض على تشريع الحديث الشريف غير قرنين وثلاثة أرباع القرن ، فى ذلك الصداق الذى منحه الخليفة « المعتضد بالله احمد بن الموفق » لابنة ملك مصر الطولونى « خمارويه بن احمد » ، المدعوة « قطر الندى » . والذى كان ١,٠٠٠,٠٠٠ (الف الف) درهم [1] ونظن هذا الصداق هو مبدأ السبب فى التغالى الذى نعامه بشأن المهر ، أو أصل السر فى الانقلاب الذى أفسد نظام الزواج فى مصر . فاذ أصبح أمر هذا الصداق حديث الاجيال ، تسممت الافكار به — والناس نفوس تتملكها الغيرة ، وتتسيطر عليها غريزة التقليد — فتكابر أهل الفتيات ، وأرغم الفتيان . وكان الشذوذ الذى نشاهد فى الغلو بقيمة المهر ، الذى جر الى النكبة التى تعانيها مصر فى أزمة الزواج . ولم يحجم الشبان عن الزواج ، وهم أميل وأرغب فى تأسيس البيوت ، الا خشية من شبح المهر .

٭ ٭ ٭

---

(١) هناك حادثة اخرى من نوع ذلك الشذوذ ، وقعت فى بغداد ، فى زواج المأمون بن هرون الرشيد ببوران . ولكننا نكتفى بما ذكرنا إذ نتكلم عن مصر فقط .

الفكرة المقصودة هى أن يؤسس بيت. والمهر هو لتأسيس هـذا البيت. واذن فيجب أن يكون لاتفاق الشخصيتين، اللتين سيكون لهما هذا البيت، الحرية فى اختياره وتكوينه. وستجد هاتان الشخصيتان أن البيوت السعيدة ليست من صنع الايدى، بل هى من صنع القلوب. وأن البيوت قد تكون بهيجة المنظر، فاخرة الاثاث، بل تكون مغشاة بالذهب من سقفها لأرضها، ولكنها مع ذلك غالباً لا تكون مرتعاً للسعادة. وقد يجلس الانسان على كرسى من القش ويكون جذلاً منشرحاً، أكثر مما لو جلس على اريكة الجواهر وهو كئيب.

وإن بيتاً يكلفنا أثاثه خمسين جنيهاً، قد يصلح أن نعيش فيه ونهنأ، كما لو أثثناه بخمسمائة. وليست الأبهة والرفاهية غير طلاء وتمويه. ونحن إلى الحقيقة أحوج منا الى المظاهر الكاذبة.

الجهاز :

البيت المصرى القديم بيت صحى طلق الهواء . لم يفعموه بالاثاث ، ولا كدسوه فيه كما يكدسه الشرقيون اليوم . ولكنهم كانوا يتوخون فى الأثاث السذاجة والبساطة لحد بعيد ، فكان مثلاً من الأمثلة الظريفة المحبوبة الصحية . حيث يترك مجالاً لتخلل الهواء .

وكم ذا يعتنى الغربيون الآن بذلك ، وينزلون على فكرة البساطة مع الاناقة فى أثاث المنزل . ولا سيما أمة الانجليز ، التى يقول كاتب من كتابها : كم ذا تكون خمسة عشر جنيهاً ثمناً زهيداً جداً لفيل . ولكن ماذا يفيدنا هذا الفيل إذا جلبناه لمنزلنا ؟ . . .

وكم ذا يضحكنا فى بعض بيوتنا الحالية ذلك العفش المكدس ، يزاحم بعضه بعضاً ، كدكان العطار ، حتى يكاد لا يترك مجالا لطريق . وناهيك بتلك العادات العقيمة فى اشتراطات الجهاز ، من جلب كل شىء ، من واجب وغير واجب، لبيت ضيق لا يتحمل هذا الازدحام . فيرهق الازواج انفسهم بغير داع . مع أنهم لو عمدوا إلى الاختصار ، لشعروا

بالبهجة والصحة ، ووجدوا أنهم فى غنى عن كثير مما لديهم . وأن الحياة لاتقبل التمويه ، لأنها جميلة بذاتها .

* * *

ولعل الفكرة أيضاً فى أمر المغالاة والشذوذ بالجهاز نشأت عن تأثير زواج « قطر الندى » الذى ذكرناه فى موضوع المهر . ذلك الزواج الذى كاد فى وقته يودى بخزائن الدولة الواسعة ، مصر ، إلى الخراب . إذ ذكر التاريخ لنا أن أباها « خمارويه » لم يبق تحفة إلا حملها فى جهازها . وكان من ذلك ٤٠٠٠ منطقة مرصعة — إن لبست واحدة كل يوم فلا تنتهى منها إلا فى ١١ سنة . ! ! — و ١٠٠٠ هاون من الذهب — وبالله تصور ماذا تصنع بها ؟ ! !

* * *

وقد كان جهاز البيت المصرى القديم غاية فى البساطة مع الاناقة البارزة . فلم يكثروا يوماً من المقتنيات . بل كان الأثاث يتكون عادة — فيما ظهر من آثار رسومهم — من

مخدع طويل ، وكرسى للراحة ، وحامل لأوانى الماء والأقداح ، وحامل آخر لزهريات العطر ، وصفف خارجة عن البناء للأوانى المختلفة الخاصة بالمطبخ ، بما فى ذلك أوانى الجعة (البيرة) ، ثم صندوق لحفظ الملابس . وتغطى الأرض بالأبسطة والحصر . وتزدان الحوائط بالحصر المختلفة الألوان . وتوضع لاستعمال الضيوف « دكك » واطئة تغطى بالحصر أو الوسائد .

وأما فى بيوت الأشراف والأمراء والملوك ، فقد تستعمل فى حجرات الاستقبال كراس خاصة ، مصنوعة من الابنوس المطعم بالعاج والاخشاب النفيسة ، وعليها الوسائد من الجلد أو القماش . وكثير من المقاعد ينثر فى المكان . وتتكون الحجر الأخرى من مخادع وكنبات وأسرة عليها الغطاءات المحشوة والوسائد . وكانت فى الحوائط فجوات تستعمل كالخزانة (الدولاب) . وتحفظ الملابس والحلى والمصوغات والنفائس على الاطلاق فى صناديق .

تعدد الزوجات :

كان المصريون القدماء لا يقترنون عادة بغير واحدة . فلا تجمع بيوتهم ضرتين معاً ، كما هى الحال عند خلفهم الحاضرين .

ولعل اولئك الأجداد أدركوا الفشل الذى يهدد الحياة بتعدد الزوجات ، فاقتصروا على واحدة غالباً .

هذا التعدد الذى لم يعدل فيه كثير من الشرقيين ، ولم ينزلوا فيه على صراحة الآية الكريمة ، التى تحلل الزواج بمثنى وثلاث ورباع ، للقادر الواسع الصدر ، الذى يمكنه أن يعدل بين زوجاته الكثيرة . وهيهات أن يكون فى الناس من يعدل ! وهيهات أن يكون فيهم من يملأ مكانه قاضياً عادلاً ، وسياسياً عاقلاً ، وحكيماً موفقاً ، بين نفوس متباينة النزعات ، مختلفة الطباع ، تملأ صدورها غريزة الغيرة ، فتدفعها للتنابذ والمكايدة والعناد !

ولعل اولئك الأجداد فهموا أن الانسانية تظلم المرأة ، وتشوه من جمالها ، وتفسد من طبيعتها وأخلاقها ، بوضعها مع أخرى فى بيت واحد ، يديرانه معاً أمام شخصية اخرى



« سنوفر » حاكم طيبة وزوجته « سناى » مرضعة الملك ، وابنتهما .
عن تمثال من الاسرة الثامنة عشرة
موجود بالمتحف المصرى

تريد كل منهما أَن تتقرب اليها . فتنشأ بينهما من المنافسة « حرب منزلية » لا تفوز فيها الواحدة الا بالمداهنة والكذب والمخاتلة ، تضطر اليها ، فتدخلها فى طبيعتها واخلاقها ، ولو لم تكن من غرائزها ، لتهدم الأخرى ، وتغنم عند الزوج الرضا والقبول .

وما أضر ذلك بالمرأة ! وما أخطره على كيانها ونفسيتها ! فمن هنا يتولد عند المرأة الملق والمراوغة والافتراء . وتتعود الأذى والشر ، وكل ما يمكنها به أن تشبع عاطفة الانتقام والشماتة ، التى تهيج فى صدرها تحفزاً للوصول الى غايتها من الاستقلال بصلة الزوج ، والفوز بالقرب منه . ولعمرى هو هذا ما يمقته الرجل فى المرأة . وهو نفسه الذى اضطر المرأة اليه ، وأفسد به طبيعتها .

***

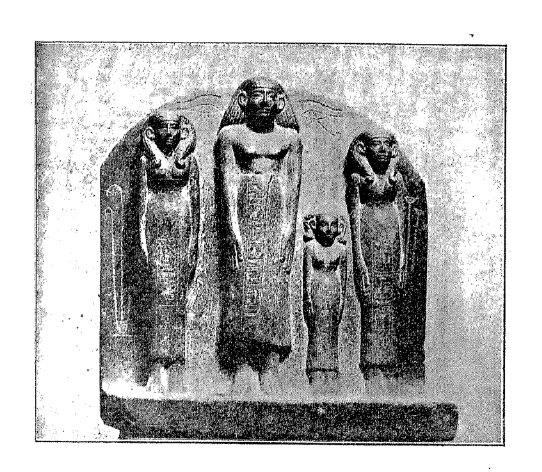
كان المصريون القدماء يفضلون الزوجة الواحدة . حتى أنهم ، كما ظهر لنا من عقود الزواج ، التى كانوا يكتبونها فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ، وما بعدها ، كانوا يشددون الجزاء على من يجمع فى بيته زوجتين . فيضطر ، إن

أشرك مع الزوجة القديمة زوجة أخرى ، أن يدفع لها قدراً من المال (اوقيات الفضة) يفوق فى قيمته ما يدفعه لها لو طلقها .

غير أن الاشراف من المصريين القدماء ، والأمراء والملوك ، أرونا فى مرات معدودة خروجهم على هذا النظام ، الذى قد يمكن أن نعده من جملة التقاليد الواجبة . فعددوا من زوجاتهم ، حتى تزوج منهم البعض مثنى وثلاث ورباع وأكثر . ولم تتفش تلك الظاهرة بين افراد الشعب . إذ الواقع أن أولئك الاشراف أو الملوك ، دفعتهم إلى تعدد الزوجات أسباب ، كان لخدمة الوطن والصالح العام فيها السر الاكبر ، وهذه الاسباب هى الرغبات السياسية فى التعاهد مع دولة مجاورة ، أو ترضية لأمة قوية .(١)

---

(١) لعل أجدر ما يجب ذكره هنا . أن « امونى » رجل الجنوب العظيم ، كما كان يلقب ، وقد مات فى بداءة حكم الملك « امنمحيت الثانى » من الاسرة الثانية عشرة . كان له امرأتان ، جمعهما فى بيت واحد . إحداهما تدعى « نبت سخت ن رع » والاخرى « حنوت » . فأخلف ذكوراً وأناثاً من كليهما . ولكنهما كانا يعيشان معاً على وفاق تام ، ولم يتشاحنا أو يختلفا فى حياتهما . بل بلغ من شدة تآلفهما أن أسمت الاولى ابنتها الثانية باسم ضرتها « حنوت » . كما بالغت هذه فى المجاملة كثيراً ، فأسمت كل بناتها الثلاث باسم الأولى « نبت سخت ن رع » !!
(Erman)

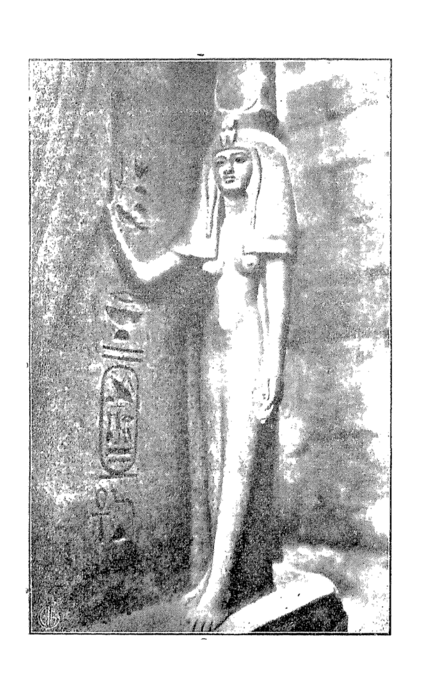


مجموعة من حجر الجرانيت الاسود . عظيمة الاهمية لموضوع تعدد الزوجات عند المصريين القدماء . إذ تمثل زوجاً جالساً بين زوجتين . والمجموعة فى مشهدها هذا تعطينا برهاناً قوياً على نظرة القدماء الى تعديد الزوجات ، فى أنهم لم يكونوا يلجأون الى اشراك زوجة اخرى مع الاولى الا عند الضرورة القاهرة . فان هذا الزوج من وضعه فى المجموعة صورة امرأة منهما بجوار قلبه (على يساره) وابنتها التى أخلفها منها معها . وتصويره الاخرى وحدها الى جانبه الايمن . ليثبت لنا فى دليل صامت قوى على أن زوجته الاولى هى التى الى يمينه ، فلما لم يخلف منها اضطر أن يتزوج التى الى يساره .

ومن النص الهيروغليفى الذى يقرأ على تماثيل هذه المجموعة . نجد على الزوجة اليمنى الاولى هذه العبارة : زوجته محبوبته ربة البيت « خنم حتب » بنت « اما » . وعلى الزوجة الجديدة اليسرى : زوجته محبوبته المقربة الى قلبه (لانه اخلف منها) ربة البيت « نب كا كات » بنت « يونت » . وعلى بنت هذه الزوجة نفس النص : ابنته محبوبته المقربة الى قلبه « نب حات حنوت سن » ، أو « نفتيس ست الكل » .

أما الرجل فيدعى « سخم حتب » . وهو النبيل رئيس كهنة « حتحور » سيدة الارضين .

والمجموعة من آثار الدولة الوسطى . ومدونة بالمتحف المصرى تحت رقم (٤٥٩) من ارقام الكتالوج العام .



الملكة « نفرتارى » زوجة الملك العظيم « رمسيس الثانى » واقفة بجانبه . وهى الزوجة التى تحمل اللقب الملكى . ويرى اسمها بجوارها داخل الخرطوش . ويلاحظ صغر حجمها بالنسبة لحجم تمثال الزوج ، الذى يرى جزء من ساقه .

والتمثال موجود فى معبد الاقصر

ومع ذلك فاننا إذا دققنا البحث لوجدنا أن تلك الزيجات الكثيرة ، التى لجأ اليها فئة من الملوك ، اضطراراً كما قلنا ، جلبت على البلاد فى كثير من الأحيان شراً كبيراً ، فقد كانت ، مثلا ، زوجات الملك « امنحتب الثالث » المتعددة ، اللائى اتخذهن من عناصر مختلفة ، من آسيا الغربية ، سبباً مباشراً فى سقوط الاسرة الثامنة عشرة .(١)

ولكن الملوك الذين اضطروا إلى تعدد زوجاتهم عن الطريق الذى بينا ، قد أعطونا هم أنفسهم برهاناً على اعترافهم بفضل الزوجية الواحدة . وفيه أيضاً تبرير محسوس لشذوذهم عن المألوف ، فى أنهم لم يكونوا يعطون حق الملكية إلا

---

(١) ذكر التاريخ ، كما استدل العلماء أيضاً من اللوحات المشهورة باسم رسائل تل العمارنة ، على أن هذا الملك تزوج عدة من بنات ملوك آسيا الغربيـة . كأخت كداشمان عنليل ملك كرادونياش (بابلونيا) ، وابنتيه . وجيلوخيبا بنت شوتارنا ملك ميتانيا ، التى وصلت إلى مصر فى السنة العاشرة من حكم امنحتب الثالث ، مصحوبة بعدد من وصيفاتها يبلغ ٣١٧ سيدة .... وتاتوم خيبا بنت توشراتا . الخ .

ومن الملوك الذين عددوا زوجاتهم أيضاً « رمسيس الثانى » الذى اتخذ على زوجته المصرية « نفرتارى » زوجة أخرى تدعى « ايست نفرت » ، ثم ثالثة هى ابنة ملك الحيثيين ، بعد توقيعه المعاهدة بين بلاد الحيثيين ومصر . ورابعة تدعى الاميرة « رعماورنفرو » لتوثيق عرى الصداقة مع والدها .

(Budge)

لواحدة منهن فقط ، هى الزوجة الاولى المصرية الصميمة ، العريقة النسب الملكى . فهى التى تشاطر الملك شرف الامارة ، وأولادها هم ولاة العهود . واسمها وحده هو الذى كان يوضع فى الكتابة داخل الخرطوش ، كاسم الملك سواء بسواء .[1]

الطلاق :

لو لم نكن مضطرين إلى هذا العنوان فى موضوعنا ما كتبناه .

هذا اللفظ الكئيب الممقوت ، تكاد تضطرب لكتابته اليد ، ويرتجف لذكره اللسان . فهو نقمة الانسانية كلها ، تجتمع فى لفظ واحد ، وترسل على الدنيا غضب السماء والارض معاً .

---

(١) كانت الملكة « تى » مثلا ، زوجة الملك « امنحتب الثالث » صاحب الزوجات المتعددة التى بيناها ، هى الزوجة الملكية ، أم ولى العهد . وكان اسمها يقترن باسم الملك ، وتظهر معه فى الحفلات جنباً لجنب وكذلك كانت الملكة « نفرتارى » زوجة الملك « رمسيس الثانى » .

ليس الموت هو أخطر كلمة فى قاموس اللغة ، ولا أشنع لفظ فى الوجود . ولكن هناك ما هو أبشع منه معنى ، وأفظع تعبيراً : الطلاق .

ففى الموت ، تعلم الدنيا أن نفساً استراحت وانتهى حسابها . أما فى الطلاق ، فنفس موتورة ، لا تدرى من الاحياء هى أم من الموتى . فهو عذاب دائم وشقاء متجدد .

نفس شقية . كتب القدر عليها النحس والذل ، تتلقاه فى ساعة من ساعات الدهر القاسية ، تصبح بعدها كل ساعات العمر تعساً وغماً .

وإنما تعبس الارض ، وتقطب السماء ، حينما يظن الرجل أنه يتنفس الحرية بكلمة يصدرها لسانه ، تتمثل له بعدها الراحة الكبرى . هو لا يدرى أنها الأنانية والجحود ، يقذفها بلسانه فى وجه العدل والمروءة ، هازلاً بالحياة والواجب . لا يدرى ، وهو يتمهد للراحة التي يزعمها والهناء الكاذب الذى يتصوره ، بعد انفصامه من زوجته التى تضاءل أمامها ، لا يدرى بأنه اقترف جريمة كبرى ، وجنى على الإنسانية جناية دونها جناية القتل . فانما هو بيت يغلق ، وزوجة تترمل ، وأولاد — إن كان له من الزوجة نسل — تتلطم ، وأسرة قضى عليها ، كان

من خلفها ذرية ترتقبها الانسانية لتعمر بها . الارض .

مأساة مفجعة تتمثل على مسرح الانسانية ، بين الدموع والزفرات . وهل آلم على النفس منظراً من أن ترى سيدة كسيرة الجناح ، متهالكة من الأسى ، تضم رداءها بين فزع الروح ، ورجفة الضمير ، لتلقى بنفسها ، طائعة مرغمة ، فى أحضان الشقاء ؟ تعود إلى بيت أبيها أو أخيها ، تتعثر بالخزى والخجل ، بعد ما جرت فى منزلها طويلا ذيل التيه والخيلاء ! . وتدخل مكانها القديم ، الذى خرجت منه بين دق الطبول ، منكسة الرأس ، كما تعود إلى الوطن الجنود المخذولة !!

غير أنها عادت إلى المنزل الذى خرجت منه ، غير هذه التى كانت فيه . شخصية أخرى لا تنظر اليها العيون إلا وتتوسم فى نظراتها السخرية والازدراء . تظن كل ما حولها يرمقها شزراً . لأن النفس الذليلة تتوجس سخط الناس عليها ، ومقتهم لها ، قبل أن تأمل منهم العطف والرحمه .

✲ ✲ ✲

رأينا عند المصريين القدماء أثراً للطلاق . ولكنه لم يكن على هذا المثال الطائش الذى نراه عندنا الآن . إذ تكاد تزدحم

محاكمنا كل يوم بقضايا الطلاق ، وما أكثر عـددها بين جدرانها ! وما أندر أن تسمع فيها لفظة الزواج !

إنهم كانوا يحسنون اختيار الزوجة ، ويفهمون سياسة البيت كما بينا فى الكلمات السابقة ، ويحترمون المرأة ، ويتقون فى معاملتهم لها الدين والعقيدة التى كانوا عليهما . ولذلك ندر أن يطلق الرجل منهم زوجته إلا لسبب قاهر جداً .

وقد يكون التفريط فى عفاف الزوجة — أو الخيانة الكبرى التى قد توجد فى المرأة ، على حد تعبيرهم — أهم الأسباب التى يضطر فيها الزوج للانفصال عن زوجته . وكان أن يفضل الزوج على زوجته امرأة أخرى تفوقها جمالا أو خلقاً ، فيعمد الى الانفصام من زوجيته بها مقهوراً . ومع أن هذا كان فى حالات قليلة جداً ، تكاد لا تذكر ، فان الزوجة المطلقة كان يحميها القانون . ويدفع لها الزوج قدراً من المال على صورة التعويض.

وقد يُرى ، فيما كتبناه تحت عنوان الزواج ، ما كان يكتبه الزوج ، فى العقد ، على نفسه من تحديد التعويض للزوجة اذا اقترن بغيرها ، ورد مبلغ الصداق (إذ يدفع من جانبها) اليها ، والتنازل لها ، مع ذلك عن جزء من أملاكه الشخصية والموروثة .

وتكاد تكون حالات الطلاق عند المصريين القدماء فى

حكم النادر . لأن تاريخهم الطويل لم يذكر لنا كثيراً من حوادث انفصام الزوجيات عندهم . فكأنهم كانوا يمقتون الطلاق ، وكأن زوجياتهم كانت باقية لاتضطرب كما عندنا ، لحسن اختيارهم للزوجة ، وفهمهم كثيراً من معانى الحياة .

وقد نظن العبارة التى وردت فى وصايا « بتاح حتب » ونصها :

« أيها الشاب الذى أحب فتاة ، وأحبته وهى عذراء .
لتعلم أنك إذا انفصلت عنها ، بعد الزواج ، ارتكبت
أمام ربك والناس أكبر الجرائم . »

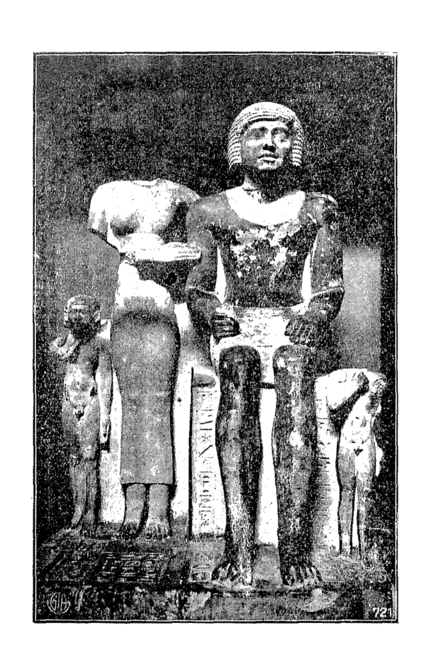
قد تكفى تأييداً لما ذكرنا ، عدا ما فيها من مثل صريح على فضيلة الوفاء فى الحب .

ونورد هنا النص الذى كانوا يكتبونه فى حالة الطلاق . وهو نص صريح واف ، لا يختلف عما يكتب اليوم فى الاسلام شرعاً وموضوعاً :

« إننى هجرتك كزوجة . وإننى انفصلت عنك . وليس لى دعوى أياً كانت عليك . أقول لك : اختارى لنفسك زوجاً فى أى مكان تريدين » (١)

---

(١) Petrie



مجموعة تمثل أسرة مصرية ، مكونة من زوج و زوجة وولدين .
و يدعى الرجل « رع ن عنخ » وهو نديم الملك . والزوجة « نب ارت » .
والولد الأكبر ، إلى اليسار « رع شب سس » . والأصغر ، الى اليمين , لما كان يحمل لقب أبيه ، فقد دعى « رع ن عنخ الصغير »
وقد فقد رأس تمثال الزوجة ، ورأس أحد الأولاد
والمجموعة من عصر الاسرة الرابعة .

حقوق المرأة المصرية

الشرعية والمدنية :

سنجد من المرأة الحاضرة عيوناً وآذاناً ، عندما تطلع على هذا العنوان . لأن المرأة ، فى كل مكان ، ظلت طويلا تطالب بحقوقها فى الحياة والمجتمع ، حتى أنها ذهبت الى الالحاف بالمساواة بالرجل ، فى كل ما يتمتع به من حقوق .

أما المرأة المصرية القديمة ، فقد كانت مع شدة احترامها للرجل ، الذى يقارب الخضوع ، مرعية الجانب منه ، محفوظة لها حقوقها الشرعية والمدنية بأوفر ما يكون صراحة وصدقاً . وكثيراً ما كانت تسير معه على قدم المساواة ، فلا تعامل فى بيتها إلا معاملة الصديق للصديق ، أو الأخ لأخيه . ولقد تبين مما ذكرنا بأنه كانت لها الحرية فى الخروج من المنزل حين تشاء ، وأنها فى منزلها لا يعارضها زوجها فى رأى . فهى الآمرة الناهية ، تدبر البيت ويسعى هو للرزق . ولكنها مع ذلك تعاونه على الحياة قلباً ويداً . فتشترك معه فى الحقل ، تؤدى الشئون الزراعية بيدها . وتذهب للاسواق تتحد مع الرجل فى التجارة . وكانت تذهب اليها مفردة ، أو معها من يتبعها من الخدم ، فيكون لها

الحرية فى أن تتخاطب مع الرجال ، ولا رقيب عليها إلا ثقتها بنفسها وثقة الزوج بها [1] .

ولقد أوردنا مثلاً فذاً للمساواة التى كانت تتمتع بها المرأة فى صورة «اخناتون» وزوجته «نفرتيتى» . تظهر معه فى المقصورة الملكية جنباً لجنب ، أمام الشعب ، توزع الهبات على حكيم من الحكماء . ونزيد الآن أن زوجة الملك أو الأمير كانت تبنى لها عادة مقبرة أخرى ، تشابه مقبرة الزوج . أوكانت تدفن معه فى قبر واحد . وكذلك كانت الحال بين أفراد الشعب .

والمصريون القدماء إذ كتبوا فى نصائحهم :

« إذا أردت أن تعيش سعيداً فى بيتك ، فكن مع امرأتك أخاً ، كن معها كصديق »

وإذ كرروا مثل هذه العبارة كثيراً فى كتاباتهم ، يقدمون لنا المثل الأعلى على ما كانت تنعم به المرأة عندهم من حياة ووجود .

ويكفى أن تعلم أنهم لم يفرطوا فى واجباتهم ، التى يأمر بها العدل ، من صلة الرحم ، والتى يحتمها الشعور والوفاء نحو

---

(١) Petrie .



صورة الملك « تحوتمس الرابع » جالساً بجوار أمه « تيعا »
على مقعد واحد . يطوق كل منهما الآخر بذراعه

الاسرة من القيام بحقوق الأبوة، والأمومة بوجه خاص. إذ تقرأ لهم :

« إذا ما ترعرعت ، واتخذت لك صاحبة وبيتاً ،
فتذكر أمك التى ولدتك، ثم أنشأتك من جميع
الوجوه . لا تدعها تلومك ، وترفع أكفها الى الله ،
فيسمع شكواها » (نصائح آنى لابنه خنس حتب)[1]

يكفى أن تعلم أنهم كانوا هكذا يأمرون بعاطفة الحنان والوفاء ، نحو الأم التى تعبت وأخرجت الانسان للوجود ، والعناية بها رداً لجميلها الذى حبت به ولدها ، فلا ينسونها فى الوقت الذى يشغل الذهن والقلب فيه بالزوجة ، لتعلم كيف كانوا يقدرون المسئوليات فى حفظ الحقوق لأربابها . وكيف كانت عواطفهم عموماً نحو المرأة ، وما لها على الرجال من حق .

وكثيراً ما نشاهد فى الآثار ، وفى التماثيل غالباً ، صورة الرجل يحيط به النساء من أهله . كأمه ، وزوجته ، وأخته . وهناك تمثال بالمتحف المصرى تحت رقم (٤٣٠٩٤) فى القسم

---

(١) دليل المتحف المصرى . والأثر مدون بالمتحف تحت رقم (c ٢٥٠٥)

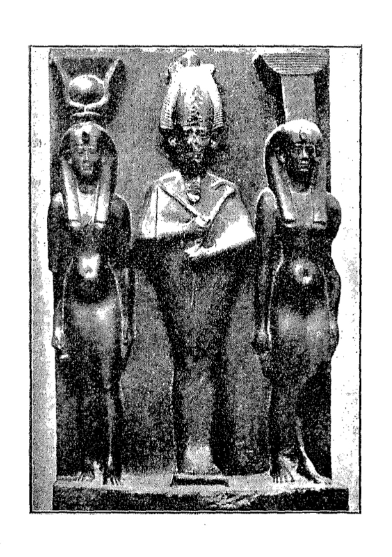
الخاص بآثار الدولة الوسطى . يرى فيه رجل جالس بجوار أربع نسوة واقفات . هن امرأته ، وخالته ، وأمه ، وجدته . ويدعى الرجل « ازى سمات سبك حتب » .

واذا أردنا أن نختم كلمتنا عن حقوق المرأة المدنيــة ، فقد نقرر أن المرأة المصرية القديمة كان لها فى المجتمع مركز سام وقدر رفيع . فشغلت مناصب محترمة ، من دينية وغير دينية . واعتلت منها منصباً رفيعاً جداً هو منصب الـكهنة . (١)

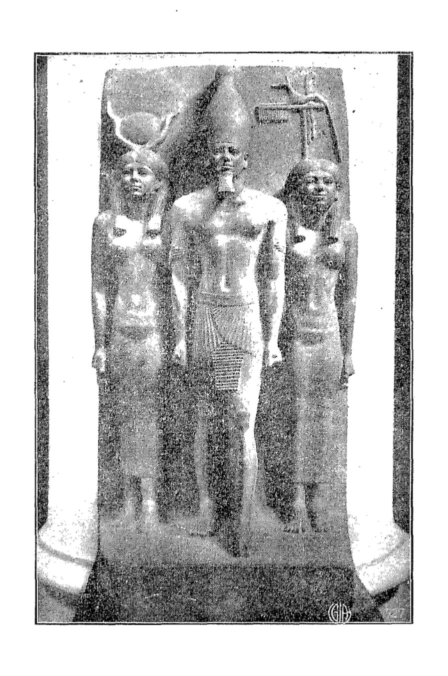
ولـكن المصريين ذهبوا فى تقدير المرأة الى أ كثر من ذلك . فـكثيراً ما وضعوها موضع الآلهة ، فكان من النساء آلهة الحفظ والوقاية — « إزيس » و « نفتيس » و « سلقت » و « نيت » — والهة الحب ، أو الطبيعة النسائية « حتحور » .

---

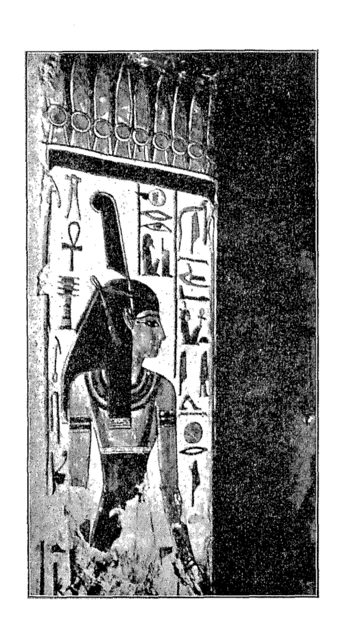
(١) إن اللائى شغلن منصب الـكاهنات فى الدولة القديمة لا عدد لهن . ولـكنا نقتصر على ذكر بعض الاسماء . مثل « حتب حرس » كاهنة الملك خوفو من الاسرة ٤ . و « مرس عنـخ » كاهنة الاله تحوت ، من الإسرة ٥ . ومثل « تحوت قا » كاهنة الالهة حتحور من الاسرة ١٢ ، من الدولة الوسطى . ثم مثل « ميرى » و « اون نفر » كاهنتى الاله ازريس من الاسرة ١٩ . و « امنرتيس » كاهنة الاله امون ، أوزوجته المقدسة ، من الاسرة ٢٥ .



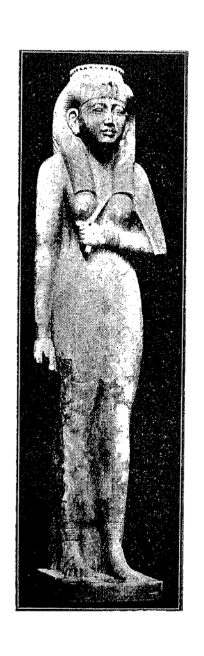
صورة تمثل اثنتين من آلهة الحفظ عند القدماء . هما « إزيس » ، وهي
ترى الى اليسار . وأختها « نفتيس » . و بينهما الاله « أزريس »
والتمثال من الدولة الحديثة



الالهة « حتحور » ، رمز الحب والطبيعة النسائية ، إلى اليسار .
والالهة المحلية لمقاطعة « كينوپوليس » بالوجه القبلى ، الى اليمين .
يحيطان بالملك « منكورع » بانى الهرم الثالث بالجيزه



صورة « ماعت » الهة القانون والشرع والعدالة ، أو الهة القضاء .
وهى ممثلة بصورة امرأة تلبس على رأسها الريشة التى اتخذت رمزاً للعدل .
والصورة منقولة عن مقبرة الملكة « نفرتارى » .



صورة الكاهنة « أمنرتيس » التى ارتفع قدرها فى نظر المصريين القدماء حتى اعتبروها الزوجة المقدسة للاله أمون. وهى أميرة طيبة، وأخت الملك « شبكا » من الاسرة الخامسة والعشرين.

والتمثال من المرمر على قاعدة من الجرانيت الاسود. ومحفوظ بالمتحف المصرى.

والآهة الكتابة والحكمة « سشت » . والآهة القانون والشرع والعدالة « ماعت » ... الخ

وأليس عظيماً أن تكون الهة الكتابة والحكمة امرأة ؟ وهذه المهمة السامية كان المنطق يوجب أن تكون من خواص الرجل . لما يفرض فيه من رجاحة العقل والقدرة، كما يتصور الناس في طول الحياة ؟

ثم أليس جميلاً أيضاً أن يمثل عندهم القانون والشرع والعدالة بامرأة ، هى الالآهة « ماعت » ، تلبس على رأسها ريشة القضاء ؟ وهى التى تحكم بين الناس بالعدل ، وتسوى ما بين الرجال من دعاوى ومشاكل ؟ (١) وحيث كان مفروضاً فى امرأة أن تؤدى هذه المهمة الجليلة ، ويكون لها بين الرجال

---

(١) قد يجدر بنا أن نثبت ، بهذه المناسبة ، أن المصريين القدماء كانوا يصورون « ماعت » الهة القانون ، أو القضاء ، مطبقة العينين . أو يمثلونها وعلى كل من عينيها حاجز يحجب نظرها . ذاهبين فى ذلك إلى أنها ، كقاضية تحكم بين الناس ، تتأثر بما تسمع ، وليس بما ترى . فتقيم حكمها على رأى الاذن ، لا العين . أو أنها لا تتحيز لطرف ، ولا تراعى خاطراً .

(Wilkinson)

وفى هذا منتهى ما يشرف قوماً أخذوا فى أسباب الثقافة والنضوج الى غاية الكمال .

وعند الانسانية هذا المركز السامى ، الذى دانت به البشرية المصرية القديمة ، وخضعت له ، فهل بعد هذا من اعتراف صريح بمكانة المرأة المدنية فى التاريخ القديم ؟

* * *

وأما حقوق المرأة الشرعية ، فقد ذهب فيها المصريون الى أقصى حدود السماحة . وهى تخالف كلية فى شأن الميراث ماعندنا الآن فى الشرع الاسلامى ، بل كل تشريع الوجود . فقد يؤول للمرأة كل شىء تقريباً ، بعد وفاة الزوج . والميراث كله لها ، تصبح هى المالكة له ، والمتصرفة فيه . فان ماتت أصبح هذا الميراث كله لابنها الأكبر من زوجها أولا ، يتولى أمره له ، ولاخوته الاشقاء ، وأخواته الشقيقات (١)

وحيث كان هذا هو المبدأ القانونى فى الحقوق الشرعية عند المصريين القدماء ، فانهم كانوا بسببه يفضلون الزواج بالقريبات ، من بنات الأعمام والأخوال والعمات والخالات ، حتى يحفظوا أملاك الأسرة وثروتها فى الأسرة . لأن نظام الزواج

(١) Revillout

بالغريبات عن الأسرة ، يخرج الميراث من حوزة أسرة الرجل ، ويشتته .

وكان النظام الشرعى فى طول التاريخ القديم على هذه الصورة . وفى حياة الزوج نفسه كانت كل الأملاك والأعيان بيد الزوجة ، وهى تتصرف فى المنزل إدارياً ومالياً كيف تشاء . وكل التراث الموجود للرجل والمرأة معاً ، مدة حياة الرجل . فاذا مات الرجل أصبحت كل الأشياء ملكاً للمرأة . واذا كان للمرأة أولاد ، وكان لزوجها المتوفى أخ يقوم بشئون الأولاد من بعده — وقد كان أخو الزوج عندهم ذا صفة محترمة ، كتابع للزوج ، يكفل البيت بعده فى موته ، ويرعاه فى غيبته — أسرع هذا الأخ ، بعد وفاة أخيه الزوج ، واعترف بكل شيء للزوجة الأرملة .(١)

وهناك وصايا كثيرة وصلت الينا ، تؤكد كلها النظام الشرعى الذى بيناه . ونكتفى أن نشير تلميحاً إلى وصيتين مشهورتين ، متصلتين فى موضوعهما بأسرة واحدة . فى عهد الملك «امنمحيت الثالث» من الأسرة الثانية عشرة . إحداهما كتبها رجل يدعى «آ نتف» على اسم زوجته المدعوة «شفت»

---

(١) Petrie — & — Revillout

والملقبة « تيتا » ، وذلك فى حضرة الكهنة . وفيها يقرر كل أملاكه لامرأته هذه ، ويتنازل لها عن كل شىء تقريباً . والثانية كتبتها هذه الزوجة ، إذ جاءت بدورها ، فتنازلت عما ورثته من هذا الزوج إلى ابنهما الأكبر المدعو « يوسنب » هو واخوته الذين سيجدون بعد كتابة الوصية .

والوصيتان مؤرختان بالسنة والشهر واليوم ، ومعتمدتان فى حضرة الكهنة ، الذين تقرأ فيهما اسماؤهم .(١)

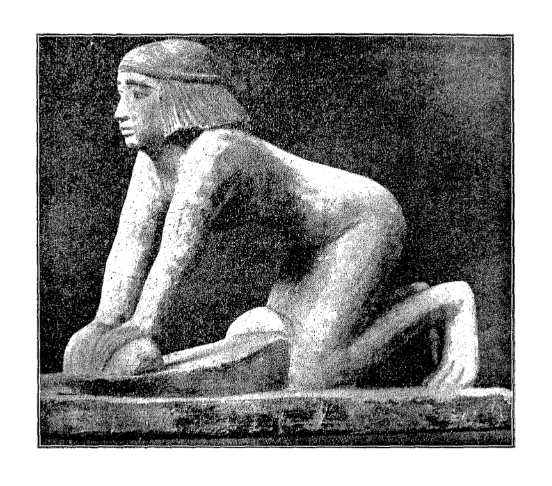
وقد بينا فى كلامنا السابق ما كانت تتمتع به المرأة المصرية من الحقوق الشرعية ، من جهة المعاملة الشخصية فى دائرة البيت . وكيف كان الزوج يعامل زوجته بالحسنى والهدوء التام ، لايشتد معها ، ولا يجادلها جدال المكابرة وما كتبناه تحت عنوان الزواج كاف لأن يؤكد ذلك .

* * *

واذا كان الشرع الاسلامى يحمى المرأة من متاعب العمل المنزلى ، فيفرض على الزوج أن لا يرهق الزوجة بشىء منه ،

---

(١) Revillout



تمثال لامرأة (خادم) تطحن غلالا ، بالطريقة الساذجة التى كانت مألوفة لدى القدماء . ويظهر جلياً ، من روح السيدة وملامح وجهها ، أنها غير مصرية الاصل .

والتمثال من مخلفات الدولة القديمة

بل لها فى بيتها قسط وافر من الراحة ، وللزوج ، بحسب قدرته ، أن يؤجر الخدم لتقوم بأداء الأعمال المنزلية . حتى أن الشرع أيضاً يجعل من حق المرأة مطالبة الزوج بالمراضع لأطفالها . فان المصريين القدماء يتفقون مع الشرع الاسلامى من هذه الوجهة . فقليلاً ما كانت المرأة المصرية القديمة تؤدى أعمال المنزل بيدها ، بل كانت تستخدم ، فى غالب البيوت ، النساء من السوريات اللائى كن فى التاريخ القديم مشهورات فى الطهى والعجين والخبز — ليقمن بمهمة تحضير الطعام وتجهيز الخبز . وكان الرجال كذلك يستخدمون لمثل هذه الأغراض ، وغالباً ما يكون فى جملة المفروض عليهم أيضاً مهمة غسيل الملابس .(١)

---

(١) Erman — & — Wilkinson

الاختلاط بين الجنسين :

ليس في موضوع المرأة أشد حساسية من هذا العنوان . ففي كل أمة ، حتى في تلك التي اعتادت الاختلاط بين الجنسين ، والتي تتمشى عندها الاباحية على أوسع نطاق ، نجد من نتائجه أثراً للرذيلة ، تكاد تكشف عن نفسها بنفسها ، مهما تسترت هذه الأمة وحاولت اخفاءها .

وإذ نكاد نسمع لفظة الاختلاط بين الجنسين تتردد على الألسنة كثيراً ، وتتجاذب الآراء في الانتصار لها ، أو مقاومتها ، فقد نخشى أن لا نرضي فريقاً كبيراً من الناس برأينا . حيث نؤكد هنا بحوادث التاريخ ، ما جر اليه الاختلاط بين الجنسين في بلاد الشرق من المساوىء ، التي بذل أجدادنا وآباؤنا جهدهم في تحاشيها .

ولا نظن هناك برهاناً أقوى من أن نذكر أن المصريين القدماء ، أقدم الأمم مدنيـة على الأرض ، أيام كانت أمم الدنيا لا تزال على الفطرة ، وأيام كانت الطبيعة والسذاجة هى الغالبـة على أذهان البشر ، وكل شيء هو من الطبيعة

واليها ، لم تكن هـذه الامة تبيح عندها اختلاط الجنسين على الصورة التى تبيحها أمم الغرب الآن . ولـكنها كانت تحافظ جهدها على تقييده بالتقاليد والرسميات . وكانت تنفر منه فى كثير من الأحيان . وإذا كنا نرى صورة له عندهم ، الى حد ما ، فقد تـكون هذه الصورة بشعة مفزعة ، مما لا يشجعنا مطلقاً على أن نأخذ بها .

فحقاً إنهم كانوا يجلسون معاً ، رجالاً ونساء ، الى الموائد فى المنازل والولائم الرسميـة ، وكانوا يجتمعون مع بعضهم البعض ، النساء والرجال والأولاد فى الاعياد السنوية ، كأيام الفيضان ووقت الحصاد والمآتم والافراح ، وينتخبون من بينهم رئيساً ، يجلسونه أمامهم ، فيضرب على آلات الطرب وهم من ورائه يصفقون ويغنون . وحقاً إنهم كانوا يقضون أيام الأعياد والاحتفالات فى اللعب والضحك ، ويكثرون فيها من شرب الراح — النبيذ والجعة — وينغمسون فى الملاهى ، تشترك معهم النساء متزينات متبرجات ، عليهن أفخر الثياب ، يختلط الجميع فى المرح والهرج . ولـكن كل تلك الاباحية فى الاختلاط كان لها عنـدهم حـدود من الرزانة والاعتدال ، كما كانوا

يشعرون بنتائجها الخطرة . فقلما كان يبدو فيها الشذوذ والشطط .

ولا بد ما كان يعقب تلك الصورة من الاختلاط أمور مخلة بالآداب . إلا أن الأمة المصرية القديمة ، التى ذهبت من شدة حرصها على العفاف ، ومن شدة تمسكها بالآداب ، الى قطع لسان البغى ، والحكم بالجب على من يأتى النساء غصباً ، والتى كانت لاتسلم النساء للمحنطين إلا بعد الوفاة بثلاثة أيام — صيانة لهن من أن يفكر المحنطون يوماً فى العبث بهن — (١) (Breasted — Wilkinson — Erman.) لا شك أنها كانت تقدر العواقب ، وتحسب حساب الضرر الذى يحيق بالأخلاق إذا أطلقت الحرية التامة فى الاختلاط . فتحاذر كل الحذر أن تتلوث حياتها الاجتماعية بما يأخذ من كرامتها .

ولا يجب أن نتصور أقل من ذلك . إذا علمنا بأنهم كانوا فى حياتهم المنزلية ، وهى شخصية بحتة ، يخصصون فى بيوتهم

---

(١) كثيراً ما وقعت فى أوربا حوادث اجرامية من عمال المشارح فى المستشفيات . إذ يتعدون على جثث النساء الحديثات الموت ، سيما إن كن جميلات ، فيأتون مع هذه الصور الهامدة الباردة أسفل أنواع الفسق الذى تشمئز منه الانسانية .

قسماً للنساء وآخر للرجال ، لا يختلط هؤلاء باولئك . وكانت البيوت الكبيرة فى الاسرة الثانية عشرة ، على سبيل المثال ، تبتدىء من بابها بممرين متلاصقين ، ينتهى أحدهما الى «الصالات» وحجرة سيد المنزل والمطبخ ، وهو جانب الرجال ، والآخر الى الحريم وغرف النوم ، وهو جانب النساء .[1]

وفوق ذلك ، فان كل رسومهم ، وهى الناطقة الشاهدة بما كانت عليه حياتهم ، يتبين منها أن النساء كان لهن حياة خاصة ، كالشرقيين اليوم سواء بسواء . فهن فى محيطهن النسوى منفردات بمعيشة ونظام ، كل ما حولهن خاص بهن . حتى أنك لا تشاهد شبح رجل واحد فيما صوروا لنا من حياة النساء الخاصة .

واذن فهم لم يتسامحوا فى الاختلاط بين الجنسين ، ولم يدعوا له . وان كان له عندهم فى بعض الأحيان أثر ، فى مثل الحفلات الرسمية والأعياد والمواسم ، كما بينا ، فلم يكن معنى هذا الأثر الاباحية والحرية ، بل هو عارض وقتى ، يتقيد بالزمن والمناسبة

(١) Petrie — & — Newberry .

تعود بعده الحياة جادة حكيمة كما كانت .[1]

وحيث كان تاريخنا الماضى لا يشجعنا على التمادى فى أمر اختلاط الجنسين ، بل يشوه فى أعيننا صورته ، فماذا ندعوا اليه اليوم ، ونحن في عقيدتنا ودينا أشد أمانة بالحياة ، وتمسكا بالواجب ، من أسلافنا ؟

---

(١) والمصريون القدماء ، فى حالتهم الاجتماعية هذه ، على نقيض اليونان والرومان تماماً ، الذين فشت فيهما الاباحية فى الاختلاط بين الجنسين على أشد ما يكون ، حتى تراخى فى أيديهم حبل العفة والصيانة ، وخرجوا من الحياة إلى مثال بشع للفجور . فقد يعلم الغربيون ، الذين يدينون للرومان بالمجد ، وقسط وافر من الحضارة ، أن هؤلاء الرومان كانت المرأة عندهم ، فى وقت ما ، متاعاً ، ليس لها قيمة فى المجتمع أكثر من أن تكون امرأة . وحدث أن بعض رجالهم المشهورين أعار امرأته لصديق .... ثم ردها هذا الصديق بالتالى اليه كما أخذها . (راجع بلوتارك فى حياة كاتون دوتيك .)

الزواج بالاجنبيات :

لا ندرى ، هل اندفاع الشبان فى الأيام الأخيرة على الزواج بالأجنبيات ، تابع من توابع « المودة » . أم هو توقع لسعادة مزعومة ؟

فان كان الأول ، فقد لا يحتاج لاعتراض منا . لأن المستقبل وحده هو الكفيل بتنبيه الذهن ، ورد العقل الطائش لصوابه .

وإن كان الثانى ، فلا شك أن السعادة لا تنتظر أن تكون من الأجنبية عن الشخص لغة وديناً وطبعاً ، بأكثر ما ترتقب من التى تشاركه اللغة والدين والطبع .

فان كان يتوقع السعادة منه نفسه ، فقد يمكن أن يوجدها ، ويخلق اسبابها ، مع مصرية من جنسه . وفى كلتا الحالتين هو شاذ غير مصيب .

إن هذه الأجنبية لا يمكن أن يوجد عندها القلب والضمير اللذان يشعران المصرى بالعطف والألفة ، كما يشعره بهما قلب المصرية وضميرها . فان انتحل العذر فى عدم كفاءة المصرية لمثل ذلك ، فليس إلا أن يكون حكمه عليها متجبراً قاسياً . أو يكون زعمه فى ضعفها نتيجة لارهاقه لها واضطهاده .

هل تنظر الاجنبية للمصرى، الأجنبى عن جنسها ودينها وعادتها ولغتها، بمثل الولاء الذى تنظر به الى ابن وطنها؟ مانظن ذلك مطلقاً. فقد دلتنا التجارب التى جمعناها من مشاهد الحياة، والأمثلة الشتى التى رأيناها تحت أعيننا فى كثير من البيوت المصرية، التى خالفت القومية والحق والواجب فى الزواج بالاجنبيات، على أن الزوجة الاجنبية تنظر إلى ذلك الزوج بعين الأنفة والكبرياء، لا يقلل من أنفتها وكبريائها غير المال، ينثره المصرى تحت أقدامها، فتفرح وتغتبط. لأنها تتزوجه لجيبه لا لقلبه.

وقد أدرك ذلك أجدادنا المصريون القدماء، ووضحت لهم الحقيقة فيه. فلم يكونوا يبيحون الزواج بالاجنبيات مطلقاً، إلا فى الضرورة القاهرة، التى جنح اليها بعض ملوكهم، لتحسين العلاقات مع الأمم الاخرى كما شرحنا ذلك عند كلامنا عن تعدد الزوجات.

ولكن الجمهور المصرى القديم كله كان يعتز بالزواج من المصريات شريكات جنسه ودينه وطبيعته. وما أروع أن يضربوا لنا فى ذلك أعلى الأمثال على سمو نفسيتهم وشعورهم!

ولقد يكفى أن ننقل لك هنا عبارة تتمثل فيها شدة تمسكهم بقوميتهم ، ومدى حكمتهم التي أدركوا بها شئون الحياة والواجب . ننقلها بدون تعليق ، لأنها بذاتها وافية صادقة . فقد كتب « آني » الحكيم المصرى القديم فى كتاب نصائحه لابنه « خنس حتب » :

« إحذر المرأة الاجنبية ، المجهولة في بلدتها . لا توجه اليها لحاظك ، ولا تتزوج منها . إنها لجة شاسعة عميقة ، لا يعرف تيارها »[1]

مدى حرية المرأة :

ليت شعرى ، أكان « شوبنهور » الفيلسوف الالمانى على حق ، عند ما قال عبارته المشهورة : « أتركوا للمرأة حريتها ، ولا تجعلوا عليها رقيباً ، ثم قابلونى بعد سنة وأخبرونى عن

---

(١) دليل المتحف المصرى . والاثر مدون بالمتحف تحت رقم ٢٥٠٥ C

النتيجة » ؟ أم أن عداءه الشديد للمرأة هو الذى أوحى اليه بذلك . وهو القائل : « إن المرأة التى تضطرنى إلى أن أحترمها لم تخلق بعد ، ولن تخلق » ؟!

هنا نجد أنفسنا أمام موضوع دقيق خطير . ما نظن لأحد من الكتاب الجرأة الكافية والاستعداد ليخرج منه برأى حاسم ، وسواء أكان مع شوبنهور أم عليه .

وماذا يقصد بحرية المرأة إذا تعدت هذه الحرية حدود البيت ، وشئون الزوجية ، وواجب الأسرة ؟ أأن يطلق لها الامر ، تدور فى الطرقات ، وتندمج بين الرجال . تعاشر من تشاء ، وتتصرف فى شخصيتها وحياتها كيف تريد . وهى التى تعلم أنها خلقت للمعرفة بنتاً ، وللبيت فتاة ، وللزوج أختاً ، وللاسرة أماً ، شابة وكهلة وعجوزاً ؟

أما إن كان غير ذلك ما تعلم المرأة عن نفسها ، وما نعلمه نحن عن واجبها ، الذى لأجله ، قبل كل شىء ، وجدت . فقد تخرج من اعتبار أنها امرأة إلى أن تكون فى عداد الرجال . وإذا فقدت المرأة أنوثتها ، فلشوبنهور ، ولأقسى من شوبنهور ، أن يحكم عليها أظلم الاحكام .

٭ ٭ ٭



تمثال لرأس الملكة المصرية « نفرتيتى » زوجة الملك العظيم « اخناتون » .
ويعد التاريخ هذه الملكة بحق زعيمة الحرية ، ورمزاً للمساواة التى تطالب بها المرأة . (راجع صورتها مع الملك فى ص ٣٧ من هذا الكتاب)

وهذه الرأس موجودة الآن بمتحف برلين بالمانيا . وقد اشتهرت بالضجة التى قامت حول اعادتها الى مصر .

عند ما زار مصر «هيرودوت» ، كان أروع ما لفت نظره تلك الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة المصرية . وقد ذكر ذلك فى كتابه عن مصر ، إذ كانت المقارنة بحالة المرأة فى بلاده اليونان ، إذ ذاك ، عكسية قاسية .

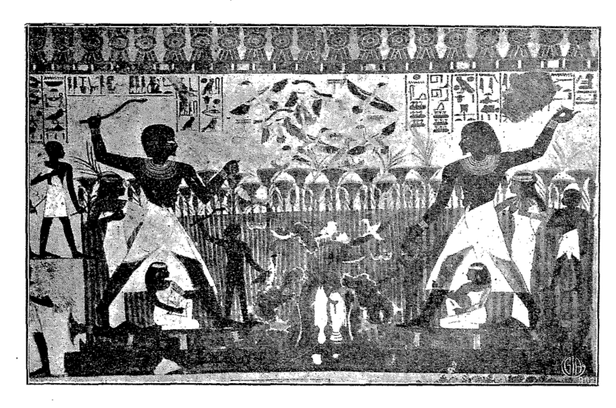
ولكن الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة المصرية القديمة ، هى التى تدعو لها أرقى المدنيات . حرية فى حدود البيت ، وما يتعلق بالشئون الزوجية ، وواجب الاسرة فى خارجه ، والتعاون مع الزوج على تمهيد أسباب العيش ، ومطالب الحياة ، بمساعدته فى العمل ما وسعت جهداً

ولقد تبين ، مما كتبنا تحت العناوين الماضية ، صور شتى من حرية المرأة المصرية فى التاريخ القديم . قد يكون فى العودة إلى شرحها تكرار . ولكنا نريد أن نضيف إلى ما ذكرنا أن المرأة فى مصر كانت تخرج مع الزوج للرياضة وصيد الطيور والأسماك . وكان أطيب الرياضة عندها رياضة صيد الطيور ، إذ تجد فيها لذة وانشراحاً . تغشى المزارع الواسعة ، وتضع الفخ على الاشجار ، ثم تنتظر وقوع الطير فيه لتصطاده . وكانت الزوجة وزوجها وأولادهما ، يغادرون البيت ليركبوا جميعاً

فلكاً فى النهر يمخر بهم الماء ، وهم فيه فى فرح وسرور ، ينشد واحد منهم الالحان ، ويطبل آخر ، ويصفق أو يرقص ثالث . وهلم جراً .

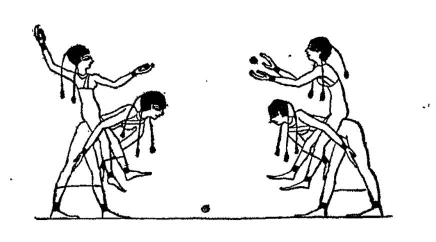
وإذ كانت المرأة المصرية تعنى بجسمها عناية تامة ، فتعمل على ترويضه بكثير من الالعاب الرياضية ، خوف أن يترهل فيلازمها الفتور والخمول ، فانها كانت تشترك مع زميلاتها فى الاخذ بمختلف الالعاب . وتركت لنا حياة المصريين القدماء صوراً كثيرة ، تظهر فيها النساء مجتمعات يقذفن كرة ويلتقطنها ، إما وهن واقفات أو راكبات الواحدة على كتفى الاخرى ، يتناوبن الكرة بينهن . أو يظهرن فى حركات مختلفة فى الرقص . أو يطلقن الاسهم من النشاب على هدف ، يتدربن على الرماية ، إلى غير ذلك . وفى كل تلك الحالات من أنواع اللعب والرياضة كانت لهن الحرية مطلقة كيف شئن .

أما من حيث الحرية فى الزينة والتبرج ، فلم تكن أمة تعنى بأمر « التواليت » كمصر . غير أن نساءها لم تكن تتخذ من « التواليت » وسيلة تتصيد بها الرجال . ولم تغال فى التضمخ بها إغراء للناس .



منظر من مقبرة « نخت » بطيبة (من الدولة الحديثة) يمثل اسرة مصرية فى صورتين . يصيد الرجل الطيور والاسماك ، بينما امرأته تقف بجواره تطوقه بيدها ، وابنته تجلس عند اقدامه ، وولده بجانبه . والكل فى نزهة رياضة الصيد يركبون القارب المصرى المعروف بقارب البردى .





(فى أعلى) نساء يلعبن بكرات مختلفة . إحداهن تقذف كرة واحدة وتلتقطها . والاخريات تتناوب كل منهن ثلاث كرات .

(فى أسفل) سيدتان تحمل كل منهما سيدة أخرى ، و هاتان يتقاذفان الكرة بالتناوب .

والمنظران من مقابر بنى حسن (من الدولة الوسطى) . وهما يمثلان بعض الالعاب الرياضية التى كانت تتريض بها المرأة المصرية القديمة .

(Wilkinson)



ثلاث من العذارى ، يعزفن على آلات موسيقية . اليمنى على المزهر . والوسطى على القيثارة بينما ترقص أيضاً . واليسرى على مزمار ذى شعبتين . وكان هذا النوع الاخير مألوفاً عند المصريين القدماء ، مع أنه من الآلات الصعبة الاستعمال ، لحاجة العازف عليه إلى يقظة ومهارة فى اخراج الانغام من شعبتيه .

والصورة منقولة عن منظر يمثلهن يطربن مدعوات من النساء . فى مقبرة « نخت » بطيبة ، من الاسرة الثامنة عشرة .



صورة عن تابوت « كاويت » زوجة « منتوحتب » أحد ملوك الاسرة الحادية عشرة . تمثلها تشرب لبناً فى قدح ، ويصب لها أحد الخدم قدحاً أخرى . وتمسك بيدها اليسرى مرآة . وتقوم احدى الوصيفات بتزيين قلنسوتها .



صورة عن مقبرة « أوسرحات » بطيبة تمثل زوجته ، وأمه ، متزينتين بأبهج زينة ويتعاطين المرطبات . وفى هـــذه الصورة مثل جميل لنوع « التواليت » الذى كان مألوفاً لدى المصريات القديمات



خادم ، تجمل آذان سيدة من سيدات طيبة ، فى حفل خاص بالسيدات .
عن مقبرة « نخت » بطيبة من الاسرة الثامنة عشرة .

وكانت التقاليد تبيح للمرأة أن تغرق في أسباب الزينة والتبرج ، وتعطى لها الحرية في التجمل كيف تشاء ، لتبهج زوجها ، وتظهر بما يدعو لاحترامها عند مثيلاتها . وقد كان ذلك عند المصريين القدماء يكاد يكون فرضاً ، فكثيراً ما يقرأ في حكمهم حض الأزواج على واجب تعطير الزوجة بالزيوت الجميلة ذات الرائحة العطرية . وقد كان الزوج يفرض على نفسه في عقد الزواج قدراً معيناً من المال ، يدفعه لها شهرياً أو سنوياً ، لأدوات زينتها .

وقد يتضح من كل ذلك أن الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة المصرية القديمة ، هي حرية طبيعية ، لم تكن تطالب بها من نفسها . بل إن العرف ، والتسامح ، مع رزانة المرأة المصرية وحكمتها ، وثقة الرجل في عفتها وصيانتها ، كل ذلك هو الذي تدرج بها فجعل الحرية حقاً من حقوقها . وليت كل النساء ، بعد المرأة المصرية القديمة ، يقدرن ذلك ، ويعلمن أن اللائي يبحثن بأنفسهن عن الحرية قد يفقدنها .

* * *

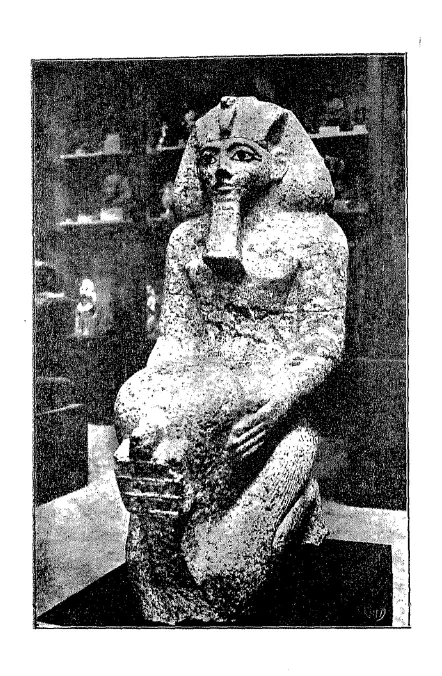
ولقد تضطرنا الحال ، ونحن نعالج موضوع المرأة ، أن

نخرج بالبحث قليلاً — وللكاتب الذى يأخذ بشئون التاريخ غالباً ثرثرة قد تفيد — لنتحدث عن فكرة نزعت ببعض نساء منذ سنين . هى أن يظهرن بلبس الرجال ، مقلدات إياهم فى حركاتهم وأحوالهم ما استطعن سبيلا . وها نحن لا نزال نرى عدداً يلبسن الياقة والكرافات ، وبعضهن يتغالين فيلبسن بذلة الرجل بأكملها ، ويمسكن فى أيديهن العصى مثله ، ويضعن فى افامهن السيجارة أو « البيبة » . فان سرن نفخن دخانها ، ولوحن بالعصى . كأنما يتحدين ارادة الله التى جعلتهن نساء . ! !

وليتهن يعلمن ، إذ يأخذن فى شذوذهن ، بأن المرأة التى تريد أن تترجل هى المرأة التى لا تعرف كيف تكون امرأة .

* * *

لعل أول امرأة فى التاريخ ، قلدت لبس الرجال ، هي الملكة المصرية العظيمة « حاتشبسوت » من نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . فانها عند ما وليت حكم مصر ، دفعها شعورها الحكيم أن لا تجرح إحساس شعب متحمس ناهض ، قلدها زمام أمره . الشعب الذى منح المرأة وافر الحرية ، وجعل منها فى الحياة العامة عضواً عاملاً ، شريكاً للرجل ، يسير وإياه على شروط



تمثال الملكة المصرية العظيمة « حاتشبسوت » من الاسرة الثامنة عشرة .
وقد تظهر فيه الملكة فى زى الرجال ، وعلى ذقنها اللحية المستعارة .
والتمثال بالمتحف المصرى

المساواة . لم تر المرأة أن تسىء اليه بالمكابرة باستغلال تلك الحقوق الموهوبة ، بل أرادت أن تقدم اليه أبلغ اعتراف بذلك الجميل ، برهنت فيه على تقديرها للحقيقة والواجب . ولم تفسر تلك الحرية التى تتمتع بها بالشذوذ والمغالطة . فتزيت الملكة بزى الرجال ، ووضعت على ذقنها اللحية المستعارة ، التى اعتاد أن يضعها الملوك لرسميات خاصة . وأمسكت بعصا الملك وصولجانه ، نظام الرجال سواء بسواء .

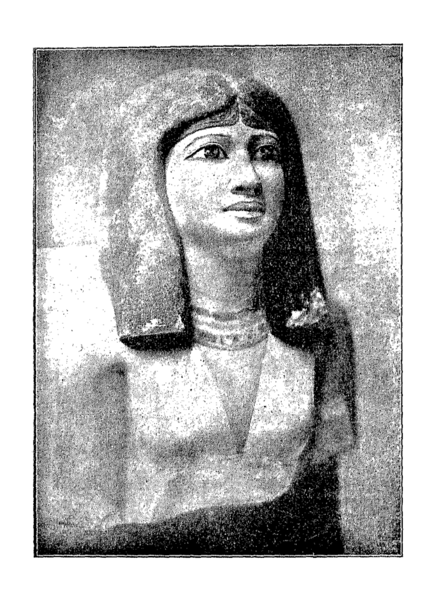
ولكنها كانت فى الوقت الذى تظهر فيه بمظهر الرجل ، والذى يجب أن لا ينسى بأن المجاملات وحدها هى التى اضطرتها اليه ، كانت تعلم أنها امرأة قبل كل شىء . وأن فيها تكمن الأنوثة ، مهما أخفتها بالمظهر . فلم تهجر نسويتها كلية ، بل رأيناها تارة تصور رجلا ، وتارة امرأة . رجلا ، عندما تقف أمام الشعب فى رسمياته . وامرأة ، عندما تخلع تلك الرسميات . فحبذا لو يفقه ذلك المترجلات من نساء اليوم .

ختام وتعليق :

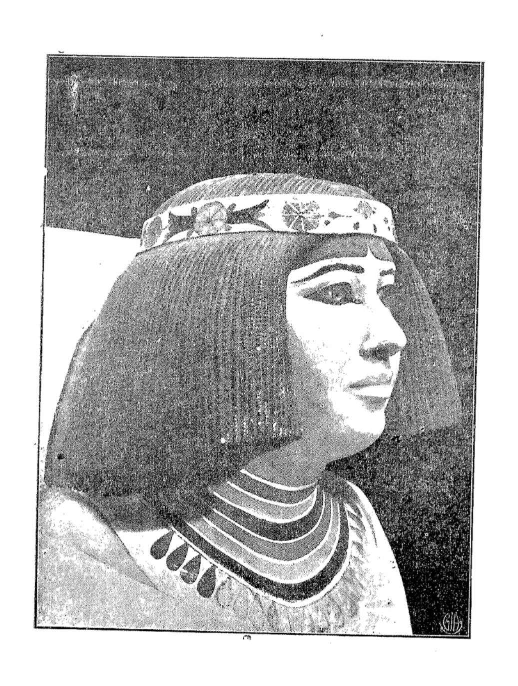
لقد وضح للقارىء ، مما كتبناه ، ما كان للمرأة فى مصر قديماً من عظمة كامنة ، وما كان فى شخصيتها من سمو . وأن المرأة كانت من قديم الزمان موفورة الكرامة ، رفيعة القدر ، يكاد يعترف لها التاريخ بما لا يقل عن حقوق الرجل فى الحياة والوجود ، إن لم يكن يوازيه تماماً . بل يكاد يضعها معه فى مستوى واحد من الوزن والقدر ، تقتسم الحياة وإياه على بساط المساواة .

واستخلص القارىء من بحثنا فى المرأة المصرية القديمة ، على أن أجدادنا المصريين كانوا يعزون المرأة ويحترمونها ، ويتقون الدين والعقيدة فى معاملتهم لها . وقد أدركوا معانى الحياة على أصدق صورها . وخرجوا منها على أن المرأة لم تخلق لتكون للرجل أسيرة أو عبدة ، يسترقها ويستعبدها . ولكنها خلقت لتكون شريكة له فى حياته ، أو أختاً كما كانوا يعبرون عنها بلغتهم ، « سنتف — حمتف » ، عندما يضيفونها إلى اسم الشخص ، أى أخته وزوجته .

وانكشفت لهم الحياة على أن الدنيا على وسعها تتلخص فى البيت . وأن الاسرة ما هى إلا صورة مصغرة للعالم . فان



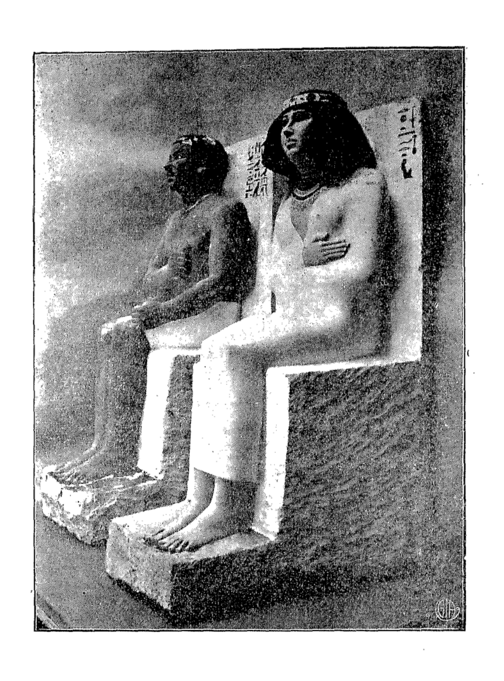
قطعة فنية بديعة . تمثل الجمال المصرى القديم بأجلى معانيه .
وهى جزء من تمثال لسيدة من الشخصيات البارزة ، الغير معروف اسمها
الأثر من مخلفات الدولة القديمة . والاصل موجود فى مجموعة المرحوم
للورد « كارنارفون »



مثل بديع لجمال المرأة المصرية القديمة

رأس الاميرة « نفرت » من أميرات الاسرة الرابعة ، من الدولة القديمة .

عن تمثال بالمتحف المصرى .



الامير « رع حتب » رئيس كهنة هليوبوليس ، وقائد الجيوش .
وزوجته الاميرة « نفرت »
والتمثالان بالمتحف المصرى . يرجع تاريخهما إلى أوائل الاسرة الرابعة .

صلح البيت صلحت الدنيا . وإن حسن بناء الاسرة حسن تبعاً لها بناء العالم .

هكذا كانوا يقدرون الحق . وهكذا كانوا يفهمون الواجب . وقد ضربوا لنا الأمثال على صوابهم وحكمتهم . فاذا هم أبلغ منا فى إدراك حقيقة الحياة . وأروع منا أخذاً بأسباب الرقى والمدنية . واذا بحياتهم الاجتماعية وافرة النظام ، رشيدة سامية . حبذا لو كنا ننهج فيها نهجهم ، ونقتدى فى حياتنا العصرية بهم .

ولعمرى ، تلك الأمة المصرية القديمة ، التى حكمت جانباً من العالم فى التاريخ القديم ، وكانت معلمة الأمم ، ومرشدتها إلى طريق الحياة والخير ، حين لم يدب بالحكمة والرشاد على ظهر الارض غيرها ، لم تبلغ هذه الأمة من العظمة ما بلغت ، ولم تتبوأ مركزها السامي من المجد والحضارة اللتين أحنت لهما كل الشعوب رؤوسها إجلالاً واكباراً ، الا برقيها الاجتماعى ، وسمو نفسية شعبها ، وتوفره على الأخذ بنظام الحياة ، وفهمه الواجب عليه نحو الوطن ، ونحو الاسرة ، ونحوالبيت . بل نحو كل ما هو سبب للفضيلة والخير .

وإذا كانت أمم الغرب تتيه على الشرق باحترامها للمرأة، فقد لا تزال مصر الفرعونية أعلى من الغرب شأناً فى احترام المرأة وتقديرها .

٭٭٭

إن مركز المرأة فى الحياة الاجتماعية فى مصر كان عظيما . وكانت كفرد من أفراد المجتمع ، لها رأى ولها أثر . وحسب القارىء منها أن تكون فى البيت ملكة ، بيدها الأمر والنهى وتدبير شئون الأسرة ، وأن تصل بين الشعب لتتقلد المناصب الجليلة ، فتكون من جملة الكهنة ، وتكون ملكة ، وتكون الهة .

وحسب القارىء أن يطالع فى حكم المصريين القدماء ، كيف يدققون فى الواجب ، ويأمرون بالخير ، فى عبارة لبعض حكمائهم :

« لا تنظر الى النساء فى بيوت الغرباء . تزوج . أطعم أهل بيتك . ولا تجعل أحداً فى بيتك يتشاحن ويغضب . » (نصائح آنى)

ثم يقولون :

« النظام فى البيت يكسبه حياة حقيقية »

وفى مناسبة أخرى :

« إذا تزوجت فلا تبخل على بيتك . واجعل امرأتك مسرورة دائماً أكثر من كل النساء . »

وحسب القارىء منهم مثلاً عالياً على الفضيلة والصلاح فى حكمة من أقوالهم :

إذا زرت صديقاً فى بيته ، فلا تدر ببصرك فى البيت . فان رأت عينك شيئاً من أسرار البيت فاكتمه فى نفسك . ولا تقص حكايته على الآخرين ، خوف أن يذاع . وتصبح بذلك مجرماً أمام ضميرك إجراماً دونه إجرام القتل » (نصائح بتاح حتب)

ويشددون بالحض على الفضيلة فى حكمة أخرى :

إذا كاتبتك امرأة لا زوج لها ، لتوقعك فى شباكها ،

فإياك أن تجاوبها ، لئلا تسقط بنفسك . فان الشهوات طريق الموبقات . » (نصائح آنى)

ثم يأمرون بالفضيلة ، يقيمون منها حائلاً دون الفسق والفجور . ويحاربون البغاء بفرض الزواج الباكر على الشبان ، يطالبون به كل فرد فى عبارة لحكيمهم « آنى »

« إن الرجل العاقل لا يجب أن يقرب النساء الساقطات ، الهائمات على وجوههن ، لفقدهن شرف الزوجية . بل يجب أن يتخذ له زوجة باكراً . فان البيت الذى يؤسسه الانسان له هو خير النعم . وزوجته الشرعية تخلفه أولاداً حلالاً من دمه ولحمه ، يخرجون على خلق أبيهم . »

وقد افتخر أحد ملوك مصر العظام قديماً ، الفرعون « رمسيس الثالث » ، بأن قال مرة :

« جعلت المرأة فى عهدى تذهب حيثما أرادت ، دون أن يتعرض طريقها أحد . »

فأكد لنا كيف كانت تراعى الفضيلة عندهم . أفراداً وشعباً وحكومة .

٭٭٭

أما فى الزواج ففى الوقت الذى توصف به الزوجة عند الزوج « حمتف — سنتف » أى زوجته وأخته ، أو « حمتف — مرتف » أى زوجته وحبيبته . وفى الوقت الذى كانت ترى فيه الزوجة ، فيما خلفوا لنا من الرسومات التى تشرح حياتهم الاجتماعية ، بجوار الزوج ، تحيطه بذراعها ، تضمه اليها ، أو تضع يدها على كتفه . نجد المصريين القدماء يتحرون فى الزواج حرية الاختيار . لا يرغم الابن على زوجة معينة ، كما لا ترغم البنت . للفتى كما للفتاة أن يقرر كل منهما ، برغبته ، من تميل اليه نفسه ويرضاها لعيشته الزوجية . فلم يكن عندهم ذلك الضغط ، والتحديد الظالم ، من إرغام الأبناء بضرورة الاقتران بمن يرغب فيه الوالدان .

والوالد لن يعيش مع تلك الفتاة التى يرغم ابنه عليها ، ولن تكون له . كما لن تعاشر الوالدة ذلك الفتى الذى ترغم ابنتها عليه ، ولن يكون لها .

علم المصريون القدماء أن الزوجية نفسان ستكونان كل للاخرى . فتركوا للابن والابنة حرية الرأى فى الاختيار ، وأمروا بذلك فى نصائحهم :

« لا تزوج ابنك ممن لا يحبها »

فكانوا عادلين حقاً ، وكانوا عقلاء . وكانت نظريتهم هذه فى ضرورة التكافؤ بين الزوج والزوجة ، وضرورة التوافق والائتلاف بينهما ، مدعاة لصيانة الحياة الزوجية عندهم من حوادث الطلاق ، الذى يمقتونه كلية ، ويعدون من يأتيه شاذاً جباناً ، جاهلاً بالواجب . والذى كان بسبب نفورهم منه يضعون القيود فى سبيله . فكان يضطر الزوج ، فى عقد الزواج ، أن يفرض على نفسه غرامة يدفعها للزوجة ، كحق مدنى إذا هو طلقها . وكانت الزوجة ، من جانبها أيضاً ، تجيبه بنفس الشروط ، فتحدد الأخرى على نفسها مثل ما حدد الزوج إذا هى بغضته ، أو مالت إلى غيره .

حسب القارىء ذلك . وحسبه أن يجد فى نصوص المصريين القدماء عبارات أخرى تمجد المرأة عندهم . كنصوص الدولة القديمة التى تشيد بذكر المرأة المحبوبة من زوجها ، وتعد عاقلا

وحكيماً ذلك الرجل الذى يكون له بيتاً ، ويحب زوجته وأن يقولوا :

« إن المرأة الجميلة توصف بالعقل إذا لم تمل إلى المنكر » (بردية ليد)

ثم يجد لهم أيضاً :

« إن المرأة تتحلى عند زوجها بأعمال يديها ، وبحكمة لسانها . »

حسبه كل ذلك ، لتعلم الدنيا كيف كانت هذه البلاد من الرقى فى احساسها وشعورها من جهة الحياة الاجتماعية . وكيف كانت المرأة فى مصر سامية القدر عند المصريين القدماء ، موفورة الكرامة ، على حال من الاحترام والتبجيل بما يضارع أعظم المدنيات التى عرفها الوجود .

وماذا ينتظر ممن كانت حياتهم وأعمالهم فى هذا الوجود تتلخص فى تلك العبارة ، التى سجلوها لنا بأنفسهم على لوحة من الاسرة ١٢ محفوظة بمتحف اللوفر :

« إعمل ما يرضى الله ، وما يحبب فيك قلوب الناس »

الا أن تكون حياتهم الاجتماعية على هذا السمو والرقى .
والا أن تكون بيوتهم بلا ريب مؤسسة على المعاملة الحسنة ، وعلى الحب والوفاء ؟ وفى ذلك كل ما تطمح اليه الزوجيات التى تنتظر أسباب السعادة .

* * *

واذا كانت تلك حال المرأة فى بلادنا قديماً . فما الذى اذن أفسد طبيعة المرأة عندنا ؟ ومن الذى سقط بها من عليائها ، الذى أثبتناه فى هذا الكتاب ، حتى جعلها هكذا منكورة القدر ، مأخوذة بالضعف ، والخمول ، والأخطاء ، المحسوبة عليها اعتباطاً وظلماً ؟

لا شك أنه الرجل . وعبثاً يحاول الرجال أن يحرروا أنفسهم من المسئولية ، أمام العدل والحقيقة .

فلولا ذلك الارهاق والاضطهاد للمرأة ، باحاطة حياتها وحقيقتها بسياج من أوهام الضعف والخور ، يتصوره الرجال فيها تصوراً . ولولا ذلك التضييق عليها بالحجاب ، واقصائها عن حظيرة العلم والمعرفة ، أو الحياة والنور . ولولا تلك الآفة فى غالب بيوتنا من تعددالزوجات بغير عدل ، وجمع الضرتين تحت سقف

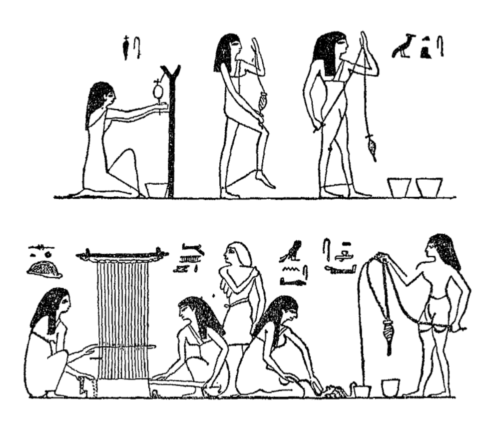
واحد ، يتشاحنان ، ويتنافسان فى أساليب الكذب والافتراء امام الزوج ، ويعكران عنده صفو الحياة . ولولا ذلك النزق الذي يؤذى آذاننا كل يوم من الظعن بسلاح الطلاق الطائش ، الذى يميت نفسية المرأة ، ويهدم من حياتها وآمالها . ولولا ذلك الاستخفاف والاستهتار بقدرها من الرأى والتفكير ، وقدرتها على العمل والمعاونة . لولا كل ذلك ، لكانت المرأة فى مصر ظلت على مركزها الاجتماعى ، وعلى قدرها وقيمتها التى كانت بها عند سكان هذه البلاد القدماء . فكانت تسعد حياتنا . وكنا بلغنا بفضلها غاية المجد . أو كنا حافظنا على الأقل على ذلك التراث من العظمة التى ورثها الأجداد لنا .

* * *

وختاماً . فلم يكن عند المصريين القدماء إذن ذلك الصلف وإثرة النفس « Egoïsme » اللذان لا يزال يلمح أثرهما فى بلاد الشرق ، من اعتداد الرجل بالقوة ، والمكابرة بحقه من القدر والقيمة دون المرأة . متجبراً ، قاسياً فى الاعتقاد بنفسه ، وحرمان المرأة من كل حق . إذ يحسبها خلقت له خادمة وكفى . يخضعها لارادته كيف شاء .

لم يكن المصريون أبداً على هذه الصورة . بل كانوا يقدرون المرأة حق القدر ، ويعاملونها على أساس المساواة . لا فرق بين الرجل والمرأة فى الحياة ، إلا بمقدار أن يكون هذا رجل وتلك امرأة . فهى شريكة حياته التى تعاونه على الدهر قلباً ويداً . وهى صورته فى البيت ، وهو صورتها فى العمل . هى المرأة التى نوه عنها « نابليون » فى تعاليمه ، لأن تكون بزواجها من الرجل وحدة معه . «Femme Conjointe» والتى قال بسببها الفيلسوف « تولستوى » كلمته المشهورة :

« يولد المرء بنصف روح ، حتى يتزوج ، فيتم له النصف الآخر . »



منظران من مقابر بنى حسن ، من الدولة الوسطى ، يمثلان جماعة من النساء يغزلن خيوط الكتان (فى المنظر العلوى) ، وهن يستعملن نفس المغزل الحالى . وينسجنها على النول (فى المنظر السفلى) ، وقد وقف بينهن عامل من الرجال للخدمة . وقد اشتهرت مصر فى تاريخها القديم شهرة واسعة بمنسوجاتها الكتانية (Wilkinson)



الملك « توت عنخ أمون » جالس على مقعد ، وامرأته الملكة جالسة بجواره على وسادة ، على الارض .

ويرى الملك يصب فى يد الزوجة عطراً من أناء صغير . وهى تتلقى العطر بيدها اليمنى ، وتستند بيدها اليسرى على ركبة الزوج .

وفى هذا المنظر تتجلى خلاصة ما ذهبنا اليه فى هذا الكتاب ، من احترام الزوجة للزوج ، واعترافها بمكانها منه . ووفاء الزوج وحسن رعايته لها .



الملكة « عنخ س ن أمون » زوجة الملك « توت عنخ أمون » وهى جالسة على وسادة على الأرض ، وزوجها فوق مقعد ، وبجواره الشبل الاليف . تقدم اليه بيدها اليمنى سهماً ، وتشير باليسرى إلى بطة سمينة . بينما الملك يرمى الطيور بالنشاب .

والجدير بالذكر فى هذا المنظر هو أدب السيدة ، فى أنها تقدم اليه السهم من جهته الرائشة ، لا من جهة السلاح .

أثر المرأة فى الحياة

ونهضة المرأة المصرية الحديثة :

تلك الضجة القائمة حول المرأة فى عهدنا الأخير ، إن كنا نتنبأ لها . فأغلب الظن أن المرأة ستخرج منها بالربح الجسيم . لأن المرأة ، منذ بدأت حياتها بجانب الرجل على ظهر الأرض ، وهى موئل الرجل وملاذه ، يعيش لها ، وتعيش له . يتربى على يديها طفلا ، ويستلهم منها الرحمة والعطف والحنان رجلا ، كلما قهرته أسباب الحياة يجد فى صدرها الشفيع والشفيق معاً .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الدليل القوى الصريح على أن المرأة انما هى بعض الرجل ، فى أن خلقها من الرجل نفسه . وقد كان الله قادراً علي أن يخلقها خلقة مستقلة . لولا أنه أراد أن يثبت للرجل ، فى دليل صامت ، على أنه إذ خلقها للرجل فقد أخرجها منه . لتكون منه وله . ولينسل منها ولها . فهما فى هذا الاتحاد الوثيق كيانان متصلان ، لا يستقلان عن بعضهما البعض ، ولا ينفصلان .

وهى من ناحية أخرى ، إذ لم تخلق خلقة مستقلة . وإذ لم تخرج للوجود بذاتها كما خرج الرجل ، فقد كان الله لا يريد أن تستغل المرأة من ذلك سبباً للمساواة التى تطالب بها الرجل . بل يريدها دائماً أن لا تنسى أنها نصف الرجل .

والمساواة التامة بين الرجل والمرأة ، فى كل حق من الحقوق ، لسنا من دعاتها ، ولن نكون ، بعد أن وضع الله المرأة دون الرجل فى نصيب الميراث وعند أداء الشهادة . فان امرأتين تساويان رجلا .

فنحن لا نطالب للمرأة المساواة بالرجل كل المساواة . فكل له حدوده التى يصرح بها العرف ، وتأمر بها الأديان . ولا نريد بكلماتنا فى هذا الكتاب أن نرفع المرأة فوق ما هى مخلوقة له ، وننتصف لها فى غير ما هو حق ، فنوليها من الواجب شططاً . ولكنا نعالج فى موضوع المرأة ما للمرأة وما عليها .

وإن كنا ننتصف لها إلى حد ، فلأننا نشعر فى ذلك بواجبنا نحو شخصية نحن — معشر الرجال — مسئولون عنها .

والذين يتنكرون للمرأة ، ويحملون عليها ، يجب أن نعلم بأنهم لم يفهموها .

وليت أولئك الناس ، الذين يمقتون المرأة ويعادونها ، يمكنهم أن يثبتوا لنا صراحة بأنهم فهموها ، أو يشعرونا بأنهم يصدرون فى آرائهم عنها عن نزاهة وعن حق .

لئن كان قصارى ما اتفق عليه أولئك الناكرون هو أن المرأة شر للبشرية ، ناظرين إلى أنها هى التى منذ أول قبس من الحياة حرمت آدم من الجنة ، بوسوستها . وهى التى بعد ذلك ، فى كثير من أدوار حياتها ، كانت بغوايتها السبب فى شرور العالم وشقاواته ، حتى ذهب عنها ذلك المثل المشهور ، فى كل سبب من أسباب المشاحنة والعداء الذى يدب بين الناس : « فتش عن المرأة » . فلقد نجيبهم على ذلك بأنها ، حتى وإن كانت شراً ، فهى شر لا بد منه . والشر الذى لا بد منه يصبح باعتيادنا عليه خيراً محبوباً .

ولا نحاول فى هذا الصدد أن نحتمى وراء ذلك المنطق الخالد ، الذى وضعه شاعرنا العربى :

إنما المرأة مرآة ترى

كل ما تصدره منك ولك

فهى شيطان إذا أفسدتها
وإذا أصلحتها فهى ملك

فنصرح بأن المرأة ، فى الصورة التى تكون عليها ، ما هى إلا بعض صنيعتنا . فان حسبناها خيراً ، فنحن خير . وإن كنا نحسبها شراً ، نكن نحن أشر منها .

* * *

والمرأة التى منذ عهد قريب كنا نعاملها بقسوة ، ونحجبها عن نور الحياة ، ونستنكر منها اضطلاعها بثقافاتنا وسيرها معنا إلى المدنية ، تالله ما كنا معها غير متعنتين ظالمين .

وبيوتنا ، التى كنا ، وما نزال لحد ما ، نصرخ منها متذمرين ، لأن فيها امرأة ، ننظر اليها نظرتنا إلى الآفة المؤذية أو الوحش ، ما كنا فيها والله غير عابثين ، وما كنا لها غير جاهلين .

أليست المرأة مخلوقاً مثلنا ، لا ينقص عنا في تكوينه شيئاً ؟ أليست روحاً كروحنا ، لها عقل ونظر وسمع وحاسة ورأس ويدان ورجلان كما لنا ؟

إذن لماذا ننكر عليها حقها فى الحياة مثلنا ؟

وأليس البيت هو عمل أيدينا ، نحن قادرون على أن نجعله سعيداً ، أو نملأه تعاسة ؟ أوليست السعادة قريبة من كل باب ، إنما علينا أن نكون مستعدين لاستقبالها ؟

إذن فلماذا نتنكر لبيوتنا ، ونتذمر منها ؟

* * *

هذا هو نبينا الكريم . ألم يعترف بنفسه لعظمة المرأة ، وقوة استعدادها . فخاطب المسلمين ، وهو صاحب الشريعة العظيمة ، وهو رسول الدين الوحيد ، وناداهم مشيراً إلى عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء . » ؟

وهل بعد هذا الاعتراف الصريح النابض من حاجة لاثبات أو دليل ؟

ولقد أثبت لنا النبي الكريم ، فى موقف آخر ، واجب الوفاء والمحبة نحو الزوجة ، وحسن العهد نحو البيت ، فى أنه ، إذ يهدى أو يُهدَى ، كان يقول : « اذهبوا بالهدية الى بيت فلانة . فانها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة . »

وما أعظم ما كانت عليه المرأة فى عهد النبى ، وما أفضل ما كانت عليـه المرأة فى أوائل الاسلام ، من القدر ، ومن العلم ، ومن المكانة !

هـــذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة لنسائه المتفقهـــات
رضن التجارة والسيا سة والشئون الأخريات
ولقـــد علمن بناته لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الـــدنيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آى الكتاب البينات
وحضارة الاسلام تنطـــق عن مكان المسلمات
بغـــداد دار العالما ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابغات
ورياض اندلس نميـــين الهاتفات الشاعرات

شوقى

وهل ننسى ذلك الدور الذى لعبته المرأة فى تاريخ حضارتنا الاسلامية ، فبزت الرجال ، وكانت شهاب المجد الساطع ،

ومثال الـكفاءة والقدرة على الاضطلاع بما يفخر به الرجال .

أتنسى التى زلزلت جيش روما
لفك أخيها من الآسر
أتنسى التى ألزمت عمرا أن
تظل المهور على الظاهر
أتنسى التى تاجرت واستفادت
ثراء المغـــــــامر والغامر
ومن قادت الجيش نحو علىّ
وكانت حمى الخائف الحائر

محمد البندارى الزرقانى

* * *

والتاريخ مشحون بالأعمال المجيدة ، التى قامت بها المرأة في كل مكان . فضلاً عما عرف عن المرأة العربية ، التى أفخر ما يتحدث به من أعمال شهامتها وكياستها وقوتها الخارقة ، ما قامت به « شجرة الدر » فى أثناء هجوم دول الاتحاد الصليبى على مصر . ويراجع أمرها فى كتب التاريخ .

فقد كانت أعمال المرأة فى فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وايطاليا ، وغيرها ، حلقة من الحلقات التى تربط تاريخ كل منها . وهذه رومية القديمة ، وحدها ، نالت حريتها بواسطة امرأة . وبواسطة امرأة بلغت السوقة فيها إلى منصب القنصلية . وانتهي بواسطة امرأة ظلم حكومة العشرة . وتخلصت رومية ، وهى على حافة الهلاك من مطرود أثيم ، بواسطة امرأة أيضاً .

***

ليتنا نخفض من كبريائنا عند ما ننظر الى المرأة .

ليتنا نتعظ بالتاريخ .

ليتنا نرحم الحقيقة ونشفق عليها .

ليتنا نعتبر بأن ملكاً من ملوك انجلترا قال للورد ألدون : « إننى أعرف كم أنا مدين للادى ألدون ، التى صيرتك قاضى قضاتى وحامل ختمى ، على أنك لولاها كنت نشأت قديساً ريفياً . »

وبأن « أوجستوس قيصر » صاحب المملكة الرومانية الواسعة ، أيام أن دخلت المسيحية الى العالم ، لم يفكر ، وهو يفارق الحياة ، فى شأن تلك المملكة ، ولا فى شىء آخر ، سوى فى

امرأته وفى طفله الصغير . فالتفت اليها وهو على فراش الموت ، وكان آخر مافاه به : « اذكرى حياتنا الزوجية السعيدة . »

ليتنا نقدر كلمة « ادمند برك » :

« يزول كل هم بحال ما أدخل تحت سقفى »

وكلمة « لورد تنيسون » عن امرأته :

« إن سلام الله حل فى حياتى يوم تزوجتها »

ليتنا نقدر كل ذلك . وليتنا نتعظ بهؤلاء القوم ، الذين عرفوا لذة الحياة بأصدق صورها ، والذين بلغوا بثقافتهم شأو السمو والخلود ، والذين وصلوا باحترامهم للمرأة ، وبمعاضدة المرأة لهم ، الى صميم المدنية ، وخلفونا وراءهم راسفين فى قيود الجمود .

ليتنا نفهم واجبنا .

ليتنا نقدر المرأة قدرها .

ليتنا نخفف من كبريائنا ، لنصلح من بيوتنا ، ولنعيش فيها سعداء .

سعداء برقي بيوتنا ، ونظامها .

وسعداء بالمرأة فيها ، وخارجها .

٭ ٭ ٭

وقبل أن نغادر القارىء نشير بملء الفرح والاغتباط الى نهضة المرأة المصرية الحديثة . تلك النهضة المباركة ، التى تركت لها أثراً مذكوراً فى كل مكان .

فقد شخصت المرأة الى حقها المهضوم . فكافحت فى المطالبة بهذا الحق ، بعد أن أخذت تبرهن فى كل مناسبة وأخرى على جدارتها للحياة ، وعلى كفاءتها لأن تضطلع بأعباء الأعمال التى يستأثر بها الرجال . ودعت دعايتها ، وهى واثقة بنجاح دعوتها . لأنها لم تكن تطلب شططاً . بل هى تحاول استرداد شىء مغتصب ، كان لها ، وكان حقها قبل أن تسلبها إياه الانانية والصلف .

وكان أول المناصرين للمرأة ، والمدافعين عن حقها ، الأستاذ المرحوم « قاسم بك امين » ، الذى وقف فى عهد دقيق ، تحطم فيه مقاومة المحافظين ، من أشياع التقاليد العتيقة ، كل دعوة للحرية وللتجديد ، والذين كانوا يهدمون ، بجمودهم ، وانكماشهم ، وتمسكهم بالعادات العقيمة ، كل أمل فى سبيل المدنية والنهوض .

وقف فى ذلك العهد ، من سنة ١٩٠٦ ، منذ ربع قرن مضى . في أوائل القرن العشرين ! ـ وكان العالم جميعه قد سبقنا الى تلك الغاية من قرون ـ فجاهر برأيه فى سبيل تحرير المرأة المصرية ، باخلاص وحماسة . وألحف فى الانتصار لها ، بصراحة وحرية ، واضعاً فى ذلك كتباً قيمة ، وغامراً الصحف بمقالات جريئة ، كان لها الأثر ، أبلغ الأثر ، فى هدم كثير من القيود التى كانت تهدد حياتنا الاجتماعية ، وتفتك بمستقبلنا . فلقيت المرأة المصرية على يديه تحقيق شطر من آمالها ورغباتها .

ومن ذلك الوقت كانت المرأة المصرية قد ظهرت فى ميدان العمل ، وميدان الثقافة ، تنافس الرجال . فكانت الشاعرة المبدعة المرحومة « عائشة تيمور » . وأشعارها ستظل خالدة فى سجل الأيام . وكانت باحثة البادية ، الكاتبة والشاعرة العظيمة المرحومة « ملك حفنى ناصف » . التى ذهبت بمنتجات قريحتها الوقادة أحاديث الناس.

وكانت نهضة الفتيات نحو العلم ، وتدفقهن على أبواب المدارس. ولا ينسى أن التعليم كان للمرأة فى مصر ، وفى الشرق عموماً ، أشبه بالمحرم المحظور . لازمت المرأة المسلمة عقر بيتها ، مرغمة بنزعة الجمود التى لازمت الشرق زهاء اربعة

قرون كاملة ، كانت المرأة المسلمة منزوية فيها وراء الحجاب ، محجوبة عن نور العلم ، حتى اختفت شخصيتها ، وخمدت سمعتها ، هذا الزمن الطويل ، الذى لا نزال نعانى نكبة آثاره حتى هذه الساعة .

كان تعليم المرأة شيئاً ممقوتاً ، غير مرغوب فيه . الى أن ولى حكم مصر المجدد العظيم والمصلح الكبير ، ساكن الجنان « محمد على باشا » جد الاسرة الملكية الكريمة ، ففتح للنساء بعض أبواب المدارس . إلى أن جاء زمن الاحتلال ، فأضاع ثمرة جهود عزيز مصر ، التى كان لا شك سيكون لها خطرها فى مستقبل البلاد .

ألا يذكر الناس أن الحكومة كانت قد حرمت البنات من حق أداء امتحان شهادة البكالوريا من عام ١٩٠٩ ، ثم حرمتهن أيضاً من نيل الشهادة الابتدائية ؟!!...

ولكن المرأة فى مصر ظلت تجاهد ، حتى فازت بقسط من التعليم لا بأس به ، حتى أرغمت الحكومة على الاعتراف لها . فكان الفتيات يتسابقن إلى دور العلم ، ويخرجن منها متثقفات . وكانت أول مبعوثة من بينهن إلى جامعات أوربا

« زينب فواز » شعلة الذكاء والنبوغ . فتحت الباب لغيرها بعدها ، فولجنه غانمات .

ولا تسل عن تلك الضجة التى قامت فى ذلك الوقت من فريق المحافظين ، الذين هبوا وعارضوا فى أمر بعثة الفتاة الى الخارج .

وإن كنا نعدد من آثار الفتيات المصريات اللاتى خرجن الى ميدان العلم ، فهاهن ، مدرسات فى مدارس البنات ، يشرفن إشرافهن على نهضتنا القومية ، ويعلكن الطريق على كل سائر .

هذه هى الآنسة النبيغة « نعيمة الأيوبى » . اقتحمت الامتحان مع البنين فى الجامعة المصرية ، ففاقت عليهم جميعاً . وكانت الأولى . فرفعت رأس المرأة المصرية ، وأثبتت بالدليل الصارخ قوة استعداد المرأة وكفاءتها ، وجدارتها للحياة .

وهذه هى الآنسة العظيمة « علية فهمي » . أوفدتها وزارة المعارف الى فرنسا ، فما لبثت بجدها ونبوغها أن حازت درجة أستاذ فى الآداب ، من جامعة باريس . وكانت المصرية الأولى التى نالت هذا الشرف .

والآنستان « زينب عبده » و « عائشة فهمى » ، برعتا فى الفن الجميل ، فأرسلتهما وزارة المعارف الى انجلترا ، فنالتا ، الواحدة بعد الأخرى ، درجة عظيمة فى الرسم والتصوير . وبرهنتا على جدارة المرأة المصرية لامتلاك ناصية الفن أيضاً .

ومن الخارج قد عاد لمصر غير هؤلاء كثيرات عظيمات . شرفن مصر فى كل مكان ، ورفعن رأس أمتهن . ويطول بنا البحث فى تعدادهن . فيكفى أن يكن ، بالعشرات ، الزهور العاطرة فى هذا الوطن ، كل واحدة منهن شخصية بارزة محترمة الثقافة والقدر .

وعند ما نشير إلى هؤلاء لا ننسى زهور السنين السابقة . فنذكر منهن السيدة « نبوية موسى » المربية الكبيرة التى تخرجت على يديها خلاصة صالحة للفتيات المهذبات ، والتى كان لها الفضل والأثر ، كمشرفة على التعليم والتهذيب ، وككاتبة من أقدر الكاتبات . والسيدتين الشقيقتين « نور الهدى الحكيم » و « نظلى الحكيم » اللتين بلغتا بثقافتهما سماء الكمال . ويكفى أن تشهد آثار ثانيتهما بالقدرة والنبوغ . والسيدة الجليلة « انصاف سرى » ، التى تتكلم عنها مؤلفاتها

القيمة ، قبل أن تتكلم مدة حياتها كناظرة لمدارس البنات ، تلك المدة التى جمعت فيها بين حكمة الرجل وعطف المرأة . فكانت أنشط المربيات وأقدرهن . ثم المربية القديرة الآنسة « منيره صبرى » رئيسة جماعة المرشدات ، ومؤسسة النظام الرياضى فى مدارس البنات ، والمشهود لها بأنها حركة عاملة فى ثقافة الفتاة المصرية وتهذيبها .

أما اللاتى برزن فى الكتابة والأدب ، فهل فى مصر ، بل الشرق كله ، من لا يعرف الآنسة « ميّ » — مارى زيادة — ، العظيمة ؟ وهل يوجد من لم يقرأ لها بالاعجاب أسلوبها الفذ ، فى كتاباتها البليغة التى تتحف بها الأدب العربى منذ سنين ؟ وهل ينكر لها العالم الشرقى كتبها الكثيرة ، الغزيرة المادة ، الخفيفة الروح ، التى ذهبت فيها مذهباً فى الفلسفة والمنطق لم يجارها فيه كاتب من الرجال ؟

وزميلتها السيدة المحترمة « عزيزه فوزى » أشهر من أن نقدمها نحن الى القراء . أينسى الناس ما تغمر به الصحف المصرية بين حين وحين ، من نفيس المقالات والتحريرات ؟

و غير هاتين السيدة القديرة « احسان احمد القوصى » ، ومواقفها الخطابية شاهدة بمكانتها من الثقافه والأدب .

والآنستان « عائشة صالح » وعائشة عبدالرحمن » . ومن آثارهما ما يحمل جيد كثير من جرائدنا ، ومجلاتنا ، بالأفكار السامية والبحوث الرائعة ، فى الأدب والسياسة .

وكان من سيداتنا المصريات من اضطلعن بالشئون الصحفية ، فكن عاملات لخير مصر . وكان لهن الأثر الخالد فى حياتها الاجتماعية . ولا نشير هنا إلى الصحفيات منهن عموماً ، اللائى زاملن فى تحرير بعض الصحف المصرية . قبل أن نشير الى رئيسات التحرير ، اللائى كن مستقلات بصحف خاصة ، يدرنها ويحررنها . وهذا عمل أجل قيمة ، وأشرف شهادة بجدارة المرأة المصرية وحسن استعدادها .

من هؤلاء السيدات « بلسم عبد الملك » ، ولها مجلة المرأة الجديدة . و « لبيبة هاشم » ، ولها مجلة فتاة الشرق . و « لبيبة احمد » ، ولها مجلة النهضة النسائية . و « سيزا نبراوى » ، ولها مجلة المصرية — L'Egyptienne — وتصدرها باللغة الفرنسية .

وعند ما نذكر « لبيبة أحمد » نذكر تلك السيدة الجليلة التى كانت حياتها سلسلة متصلة الحلقات فى سبيل العمل على ترقية المرأة المصرية ، والسعى لاسعادها ، والدفاع عنها . والتى

قامت بأدوار مهمة فى الحركة الوطنية من عهدها الأول . وقادت الحركة النسوية ونهضتها مدة طويلة من الزمن ، كانت فيها المنار الهادى والمرشد الأمين .

وعندما نذكر « سيزا نبراوى » تتمثل أمامنا تلك الروح النابضة ، التى شرفت المرأة المصرية فى هذه الديار ، وكانت الكوكب الساطع فى سماء مصر . فهى فضلاً عن اصدارها مجلة كاملة بلغة غير لغة بلادها ، تدافع فيها بشدة وحكمة عن كيان المرأة المصرية وحقوقها فى المجتمع ، وتنشر فيها للغربيين أصدق الصور عن النهضة النسوية ، فهى تجمع فى نفسها خير الأمثلة عن مبلغ ما وصلت اليه المرأة المصرية من العلم والثقافة . ويكفى أن أعضاء مؤتمر الصحافة اللاتينية ، الذى عقد بمصر فى أوائل عام ١٩٣٢ ، قد حكموا عليها بأنها سيدة تشرف مصر ، وأنها فى الكفاءة الصحفية زميلة جديرة بالاحترام .

وهناك آنسة لم ينسها بعد الشعب المصرى ، الذى كان يقرأ لها فى أيام الحركة الوطنية الأخيرة كلماتها المتواصلة ، التى كانت تتوج بها هام جميع الصحف المصرية . والتى كان لها وحدها مجلتان تصدرهما معاً في وقت واحد . هما مجلة الأمل العربية ، ومجلة الأمل الفرنسية — L'espoir —

ولقد وثبت الفتاة المصرية نحو المدنية الحقة وثبة جريئة ، إذ غامرت الآنسة الجسور « عصمت فؤاد » لتعلم فن الطيران . فكأن المرأة المصرية أرادت بذلك أن تسد الطريق بالبراهين على جدارتها للحياة الجديدة ، بعزيمة وحكمة ونجاح .

وعندنا ممن احترفن من النساء مهنة الطب كثيرات ، أظهرن من الكفاءة فى الاضطلاع بأعمالهن ما يبعث على تقديرهن واحترامهن .

وإن كنا نريد أن نعدد أسماء النبيغات من سيداتنا وأوانسنا عموماً ، ونذكر آثار نهضتهن الحديثة فى المجتمع المصرى ، فقد نخشى أن لا نوفق للالمام بأسمائهن جميعاً ، وأخبارهن كلها . وليس ذلك شأن موضوعنا على كل حال . إذ لا نحاول أن نحصى كل آثار نهضة المرأة المصرية ، بل نعطى عنها فكرة فقط .

* * *

وللمرأة المصرية فى تاريخ ثورتها للحرية والاستقلال ، من عام ١٩١٩ شأن مذكور . فقد هبت المرأة حينذاك مع

الرجال . وقامت الفتيات بجانب الفتيان ، ينادين جميعاً بحقوق مصر . وخرجت النساء متظاهرات ، وطفن هاتفات فى الطرقات ، يشاطرن الرجال الخطر والأذى ، معرضات أجسامهن للرصاص والحراب . فكن ينفثن فى الشبيبة المصرية الهمة والنشاط ، ويبعثن فيهم العزيمة ، ويجددن القوى . وكان لهن الفضل الجسيم فى حياة النهضة القومية .

وحيث أتينا الى اشتراك السيدات المصريات فى الحركة الوطنية ، فلا يجب أن نغفل ذكر تلك الزعيمة الجليلة ، « صفية زغلول هانم » ، التى لازمت الحركة من أول عهدها . والتي قادتها فترة طويلة ، بجانب زوجها الزعيم الكبير الراحل « سعد زغلول باشا » ، وبعد وفاته . والتى صارت بعد سعد رمزاً له ، وللتعاليم التى بثها فى الشعب .

* * *

وكانت للمرأة المصرية أياد مشكورة فى أسواق الاحسان ، ومحافل الخير . فكانت تسابق الى البر ما وسعت جهداً . تواسى الجرحى فى أوقات الثورة العصيبة . وتغدق فى الهبات عند كل عمل خيرى ، وتشاطر فى التبرع لكل دعوة انسانية .

ويكفى أن يكون النساء قد أسسن من بينهن اللجان لذلك الغرض . ليلبين داعى المروءة عند كل واجب .

ثم إنهن أسسن الجمعيات ، للقيام بتربية الفتاة وتهذيبها . وأقمن المدارس والمشاغل ، لتدريب الفتيات على الصناعات والحرف التى تخدم البلاد وتنفعها ، وتكون ضماناً للفتاة من الفساد ، ومن غالة الفقر إن أحوجتها الأيام . وهذه « جمعية المرأة الجديدة » وترأسها السيدة الجليلة « شريفة هانم رياض » و « جمعية الاتحاد النسائى » وترأسها الزعيمة المحترمة « هدى هانم شعراوى » فهما أجل المثل وأعلاها . ولكل جمعية منهما مشغل خاص ، يضم بين جدرانه عدداً من الفتيات ، يتلقين العلم ، ويتعلمن الصناعات .

وللسيدة « شريفة هانم رياض » يد طولى فى الحركة الوطنية ، وفى النهضة النسوية أيضاً . فقد رأست عدة لجان للسيدات ، وكان لها الأثر الفعال فى تحقيق الغاية التى أنشئت من أجلها .

أما السيدة « هدى هانم شعراوى » فقد أصبح اسمها الكريم رمزاً لنهضة المرأة المصرية ، وأصبحت حياتها سجلا من الأعمال الجليلة فى سبيل مجد المرأة وعلاها . وهى زعيمة

النهضة النسوية فى هذه البلاد من زمن طويل : ولا تزال تقود تلك النهضة بحزم وكياسة . ولها كل عام رحلات ناجحة ، تقوم بها فى بلاد الغرب . تدعو دعايتها للمرأة المصرية ، وتقف فيها على أرقى الوسائل للأخذ بناصر المرأة وترقيتها . وتتكبد فى سبيل تلك الدعوة ، التى يعتبرها التاريخ من أقدس الأعمال وأجلها ، البذل من مالها الخاص . ولم تغفل حضور مؤتمر واحد ، فى أى دولة من الدول ، يدعو للعناية بالمرأة ، فتمثل فيه المرأة المصرية بأشرف المظاهر .

* * *

وبجانب أعمال المرأة من أبناء الشعب ، نشير إلى تلك الثقافة البالغة فى أميراتنا النبيلات ، سليلات البيت العلوى الكريم . فقد نختار من بينهن الأميرة « قدرية » ، واختها الأميرة « سميحة » ، نجلتى المغفور له السلطان حسين كامل . فللأولى من منتجات قامها ما يفتخر به الشرق عامة ، وهى كاتبة معروفة من زمن طويل . وللثانية شهرة واسعة فى الفنون الجميلة ، وقد اشتركت مع أرباب الفنون من الشعب فى معارض كثيرة ، زينتها بأعمال يديها البارعة فى فن الحفر وصناعة التماثيل .

✲ ✲ ✲

وهكذا كان من آثار المرأة المصرية ما يشرفها فى كل مكان . وكان من فضل سيداتنا المحترمات على حياة مصر ما يطلق الألسنة بالفخر .

سيدات هن الملائك فى الطهـ
ر وفى حزمهن كالملكات
لؤلؤات فى جيد مصر فما أحلا
ه جيداً بهـذه اللؤلؤات
أمهات الرجال فى كل شعب
وحياة الشعوب بالأمهات
هن روح الحياة فابشر إذا قمـ
ـن لأوطاننا بروح الحيـاة
خرصت ألسن عليهن تفتا
ت بسوء الحديث والدعوات

محمود رمزى نظيم

✲ ✲ ✲

ولعلنا أتينا فى هذا البيان ، المتواضع ، بما يجعلنا نقوم ببعض الجميل للمرأة المصرية ، على ما أدته من الخدمات الجليلة ، لنا وللوطن .

ولعل الرجال بعد ذلك يدركون مرمي هذا الكتاب . فيسلكون مع المرأة ، التى كان الرجل سبباً فى ارهاقها واضعافها ، طريق التقدير والاحترام . ويقفون معنا عند رأى الثقافة الأوربية .

« إن الله عند ما أراد أن يخلق المرأة ، لم يخرج حواء من رأس آدم ، حتى لا تسود عليه . ولا من عظم قدمه حتى لا يطأها . ولكنه خلقها من ضلع من أضلاعه ، لتكون مساوية له ، قريبة من قلبه » .

احمد يوسف

واجبنا

فى سبيل مجد الوطن :

« إذا كان الرجل المصرى هو المسئول عن حجاب المرأة ، فانه قد كفر عن ذلك بالتفكير الجدى فى منحها حريتها .

عبر « قاسم أمين » عن أقلية من الرجال تحررت عقولهم ، وانطلقت نفوسهم من أسر العادات والتقاليد ، فاقتنعوا بأن المرأة شريك فى الحياة ، وليست متعة ومتاعاً ، يتصرف فيه مالكه على هواه . .

ولم يمض على وفاة « قاسم أمين » عشرون عاماً ، حتى احتفلت المرأة المصرية فى أحد مسارح القاهرة باحياء ذكراه . . . ولله هو من احتفال فريد !! لقد بهرت الجماهير الحاشدة ، وأكثرها من الرجال ، بنضوج عقلية المرأة . وسرها أن تتولى أمر الدفاع عن حريتها بنفسها . وأن تعتمد على جهودها هى قبل أن تعتمد على جهود الرجل . . . فكان ذلك الاحتفال برهاناً

ساطعاً على أن نصف الأمة المصرية ، أو يزيد ، دبت فيه الحياة ، وأصبح ينتفع به في بناء النهضة ورقي البلاد .

إن السفور ليس مادياً فحسب ، بل هو معنوى أيضاً .

فسفور المرأة من حجابها ، واختلاطها ، لن يفيد إذا لم يصحبه سفور عقلها ، وروحها ، وعواطفها . . . على العكس ، في احتجاب عقلها خطر ، وفي انكماش روحها فناء ، وفي ازورار قلبها عذاب مقيم .

أمس كانت البنت ملك عائلتها ، واليوم هي ملك للأمة . . . والمرأة التي كانت زوجة تنقاد لمشيئة زوجها ، يفعل بها ما يشاء ، صارت اليوم يحميها القانون . فلا تتزوج قبل سن معينة ، هي السادسة عشرة . وتنفصل من الحياة الزوجية إذا اضطهدت .

لقد وحدت النهضة الأخيرة بين جهود المرأة وكفاح الرجل ، من أجل حرية مصر واستقلالها . وغداً تتوحد جهودها لرقيها وسعادتها .

إن سفور المرأة ، واعلانها سفورها فى المظاهرة التاريخية التى اخترقت شوارع العاصمة منذ سنوات قليلة ، انما يعبر عن معانى أبعد من سفور الوجه . .

آية ذلك تغيير العلاقة بين أفراد الاسرة ، ووضع المودات والروابط العائليـة على أساس التفاهم والاخلاص والمصلحة . وما أظن المرأة المصرية فكرت قبل اليوم فى تربية أبنائها للوطن ، لا لمنفعتها الشخصية ، أو حباً فى التدليل . ولم أشهد منزلاً مصرياً ، قبل اليوم ، تتوفر فيه أسباب الهناء والسعادة .

غير أنى أوجه القول للرجال . فأنصحهم بأن لا يعودو إلى المنازل من القهاوى ، ويشرفوا مع المرأة على مستقبل الاسرة . . .

داخل البيوت يكون العمل المنتج ، أو وضع الخطط التى تسفر عن النجاح . . . فالى البيوت . ثم من البيوت .

إلى الكفاح فى سبيل مجد الوطن ، رجالاً ونساء . »

ابراهيم الهلباوى بك

كلمات للفيلسوف « تاجور »

إن الرجال يمدحون رقة المرأة ونحافتها ، كي يوهموها أنها ضعيفة . والحقيقة أن القوة هي عند النساء . وإن الرجال يباهون بحريتهم . ولكن من عرفهم حق العرفان يعلم أنهم عبيد أرقاء . وأنهم هم الذين صنعوا قيودهم بأيديهم . على أنه لا شيء يمنعهم عن أن يكونوا احراراً . فأما النساء فهن اللواتى بذرن الحرية في جسومهن وأرواحهن . وهن اللواتى ولدنها وأرضعنها .

* * *

إن الله حين خلق الذكر والأنثى ، جعل اتحادهما قدسياً ، وفوق كل اتحاد . ولكن الرجل ، الذى يرغب فى مجاراة الطبيعة ، لا تروق له هذه المجاراة إلا اذا احتمى وراءها بالعادات الجميلة . ومن هنا تولد الكذب .

* * *

إن الرجل يحب لمعان الأوهام . وإنه ليؤثر النشوة على الغذاء . فتحول المرأة نفسها الى شراب مسكر . ولولا رغبتها في إرضاء الرجل ، لما احتاجت الى الخداع والايهام .

* * *

النساء يشبهن الأنهار . فانها قوة مفيدة ، حين تجرى ساكنة هادئة . وهى قوة مخربة ، حين تهيج وتطغى .

رابندرانات تاجور

« شأن المرأة والرجل .

« شأن القوس والوتر .

« تثنيه . وتطيعه .

« وتجـذبه . وتتبعه .

« ولا يصلح كلاهما بمفرده . »

هنرى لونجفلو

« ليس الرجل وحده هو الانسان . ولا هو المرأة وحدها .

بل هما الانسان ، والإنسان هما . كل جنس دون أخيه

نصف فقط . ولا يصير عدداً كاملاً إلا إذا أضيف اليه

النصف الآخر . لا صحة للمرء إلا بسلامة دماغه وقلبه .

ولا سعادة للرجل إلا بسعادة المرأة . »

فيكتور هوجو

مراجع الكتاب
فى التاريخ المصرى

A History of Egypt (D. H. Breasted)

Life in Ancient Egypt (A. Erman)

Social Life in Ancient Egypt (Sir Flinders Petrie)

The Ancient Egyptians (G - Wilkinson)

La Femme Dans L'Antiquité Egyptienne (Eug. Revillout)

A History of The Egyptian People (W. Budge)

The Literature of The Egyptians (W. Budge)

Les Contes Populaires de L'Egypte Ancienne (G. Maspero)

Beni Hassan (Percy Newberry)

The Old Egyptian Faith (E. Naville)

Encyclopædia of Religion And Ethics

Kings And Queens of Ancient Egypt.

Etc.

الفهرست

تصحيح خطأ

وقعت فى هذا الكتاب ، بالرغم منا ، أخطاء بعضها زلات قلم ، وبعضها مطبعية . نود أن نلفت اليها الانظار لتصحيحها قبل البدء بالمطالعة . وهى لا تخفى على القارىء اللبيب . على أننا نبدى أسفنا لوقوعها ، ونعتذر لحضرات القراء عنها .

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٧	٢	واولادها	وبناتهما
٣٧	٢	« آنى »	« آى »
٣٩	١	تبوأ	تبوء
٤٦	٢	لمفيس	لمنفيس
٦٢	١٣	أن	إن
٧٥	٢	جالساً	واقفاً
١٥٠	٦	ضررة	ضرورة
١٥٠	٩	كان	كانوا
١٧٢	١٥	حتى	وحتى


Bibliotheca Alexandrina
0402697